المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

باربارا بارتوس-هوبنر

ابنة ملك إرين



11.9.2015

ترجمة: مؤمنة حافظ عبد البر

2122

سلسلة الإبداع القصصى

ابنـة مـلك إريـن

تأليف: باربارا بارتوس - هوبنر
ترجمة: مؤمنـــة حـــافظ عبد البر



2013

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2122
- ابنة ملك إرين
- باربارا بارتوس – هوبنر
- مؤمنة حافظ عبد البر
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

Die Königstochter aus Erinn

Von: Barbara Bartos-Höppner

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت:٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بارتوس، باربارا
ابنة ملك إرين/ تأليف: باربارا بارتوس- هوبنر، ترجمة: مؤمنة حافظ عبد البر
ط١ القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٢٨٠ص، ٢٠سم
١- القصص الألمانية
(أ) هوبنر (مؤلف مشارك)
(ب) عبد البر، مؤمنة حافظ (مترجم)
(ج) العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع ١١٠١٠ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى 978-977-216-148-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تبدل القمر في منتصف الليل	7
حصان من أجل جرينه	22
نداء البجع	43
عيد الساموين	59
رقصة الفرح	91
الحب كما أريده	109
الهروب	131
في غابة كلانريكارد	159
على شاطئ البحر	185
المنبوذان	199
تحوّل الشمس	215
في قصر جرينه	233
الوقوع تحت سحر الخنزير البري	253

تبدّل القمر في منتصف الليل

منذ وقتٍ طويلٍ لم تمر ليلة مثل هذه الليلة، لا في هذا الشتاء، ولا في هذا العام. أتتْ دون سابق إنذار، وجعلت السماء فيها تميل إلى اللون الأصفر الداكن وإلى اللون الأخضر. كما صاحبَ فيها دخول الظلمة عاصفة شديدة. كان ذلك مع نهاية الشتاء في تارا، التي يطلق عليها حتى الآن 'تارا الملوك'.

سبق تلك الليلة يومٌ غريبٌ غمر فيه ضوء ساطع السهولَ الواسعة في تارا، وبرزتْ في سمائها قلعة الملك الشامخة بلونها الأزرق.

-"لن أتحمل أكثر من ذلك، لا بد أن أخرج إلى الهواء الطلق!"

قالت آيتشه ذلك، ثم خرجت إلى الشرفة. "أظن أن الربيع قد اقترب!"

هنا همهمت العجوز ماتشا قائلة: "سوف يتبدد ظنك هذا فورا. إنك تنخدعين بالشمس"

-"ولكن يا ماتشا، ألا ترين كيف أزهرت المروج الخضراء؟ لقد صار لونها أبيض بعد أن غطتها الزهور والأعشاب البيضاء"

-"إنما الصقيع هو الذي يغطي المروج، وليس شيئًا آخر!"

-"لا يا ماتشا، لا تفسدي عليَّ سعادتي. حسنا، ربما أيضا يكون الجان قد رقص عليها"

هنالك مدتْ ماتشا يديها في إشارة لرفضها لما جاء على لسان آيتشه وقالت: "فلتحمِنا كل الأرواح الطيبة من ذلك! هذا ما ينقصنا، أن تتحولَ مراعينا الطيبة إلى مكان لرقص الجان! لو أني فقط أعرف ما الذي أصابك أيتها الملكة؟"

-"أنا سعيدة يا ماتشا بهذا الدفء الشديد المنبعث من الشمس، وكذلك باقتراب موعد الولادة، ولادة الطفلة الصغيرة التي ستكون لي أنا. وأرجوك أن تناديني بآيتشه عندما نكون أنا وأنت وحدنا"

أخذت ماتشا تنظر حولها في جميع الاتجاهات، ثم قالت: "ولكن من يعلم إِنْ كنا بالفعل وحدنا؟ لقد كنتِ تتحدثين عن الجان"

هنا وضعت الملكة ذراعيها حول كتفيْ خادمتها العجوز وهي تقول: "إنه بالفعل يوم يمكن أن يكونوا قد استيقظوا فيه داخل قصرهم الواقع على مياه البوينه. انظري إلى السماء الصافية المتلألئة مثل قطعة الزجاج حين يتخللها ضوء الشمس. متى استطعنا في أى وقت من الأوقات السابقة أن نمتد ببصرنا بعيدا هكذا؟ متى كانت الجبال في

الجنوب قريبة إلى هذا الحد لينجلي لونها البنفسجى كما هو الحال اليوم؟ وجبال الشمال، انظري إليها يا ماتشا! هل كنا نراها في أى وقت آخر؟ واستديري أيضا إلى الغرب، وإلى الشرق.. سوف ترين الجبال حولك في كل مكان."

"إنك تطلبين الكثير من عجوز بلغت من العمر أرذله. فعيناي التي بالكاد ترى الجبال هنا في الجنوب لا تستطيع أن ترى أبعد من ذلك"

"قد يكون إدراكي لها أنا أيضا عن طريق الإحساس أكثر منه عن طريق الرؤية. لكن ذلك هو الشيء الغريب في هذا اليوم. أنا أقول لك يا ماتشا، لا بد وأنه الربيع."

"وأنا أقول لك أنك ستموتين، إن لم تعودي حالا إلى الداخل لتتدفئي بالنار. فأنت تقفين هنا بقميصك ومعطفك فقط، وكذلك حافية القدمين! يا إلهي، هيا ادخلي بسرعة الآن!"

"انتظري لحظة يا ماتشا، لقد ظللت طوال الشتاء جالسة بجانب النار أتدفأ بها حتى اخشوشنت حنجرتي. أما اليوم فالهواء عليل. كما أني أريد أن تمنح الشمس بشرتي لونًا داكنًا"

لم تلتفت ماتشا إلى كلام الملكة، بل جذبتها خلفها إلى داخل غرفة المعيشة. تركت باب الشرفة مفتوحًا قليلا بينما غطت الملكة بعناية بفراء خروف، ثم جلست أمام المغزل. أما الملكة فلم تستطع أن

تحـــول عينيهـــا عـــن أشعة الشمس التي تسللـــت عبـــر الباب إلى داخل الحجرة.

عند اقتراب وقت الظهيرة، أطلقت خيول الملك في المراعي بعد أن أحس العاملون بالإصطبل بالخوف على حياتهم. فقد أصيبت الخيول منذ عدة أيام بحالة هياج جعلتها تقطع السلاسل التي تربطها، وتدق الأرضَ بحوافرها، وتقفز إلى أعلى، وتعضِ أوعية طعامها. حتى رائحة الماء الذي كان يتصبب منها صارت غير محتملة.

"إنها تحس باقتراب موعد السباقات" كانت تلك كلمات رئيس الإصطبل. "امنحوها المتعة واتركوها تنطلق!"

فتح العمال البوابات على مصراعيها، فتدافعت قطعان الجياد إلى الخارج، وارتفع صهيلها ليبلغ غرفة النساء في البرج. قفزت آيتشه من فراشها وهي تصيح: "ماتشا! ماتشا! تعاليْ! إنه منظر يستحق المشاهدة!"

همهمت ماتشا قائلة: "تريدني أن آتي". كانت تمسك بفراء الخروف بين يديها لتضعه على كتفيّ الملكة. صرختْ في غضب: "لابد أن أدعهم يحطمون تلك الشرفة. لا، ما هذا اليوم العجيب!"

"انظري يا ماتشا كيف تنطلق بسرعة عبر المراعي، فقط انظري إلى الخيول البنية، والسوداء، والبيضاء. وانظري إلى البرشاء

هناك، كيف تمد أعناقها وتضرب بحوافرها الأرض، بينما تهتز أعرافها. لا توجد في جميع أنحاء إرين خيول أجمل من تلك!"

عقبت ماتشا على كلام الملكة بقولها: "أتفقُ معكِ تماما. ولكن هل لي أن أخبركِ بما أرى الآن؟ إنه ظهرك الذي أضع عليه فراء الخروف. إنما يعزيني شيء واحد، وهو أنه فراء ذلك الكبش البغيض الذي نطحني بقرونه منذ فترة"

ضحكت الملكة.

أحستْ ماتشا بالإهانة، فقالت: "اسخري مني كيفما تشائين. لقد بدأت ذراعاي تتصلب في هذا الوضع."

"ادخلي يا ماتشا، سأمسك الفراء بنفسي."

كانت ماتشا تضع كرة جديدة من الصوف في المغزل عندما دخلت الملكة إلى حجرة المعيشة ونادت: "ماتشا!"

رفعت المربية العجوز رأسها وقالت: "ماذا هناك يا آيتشه؟"

"أرجو أن ترسلي في طلب القابلة."

من هول المفاجأة سقطت من يد ماتشا كرة الصوف. "لستِ جادةً يا آيتشه!"

ردتْ الملكة: "بلى، بلى!"

"لكن طبقًا لحساباتنا ما زال يتبقى خمسةَ عشرَ يوما."

"افعلي ما آمرك به يا ماتشا. ولا داعيَ لأن يعرف الملك الآن. ثم عودي إليّ بعد أن يكون الرسول قد انصرف"

لم تكن ماتشا هي السبب في أن يتأخر الرسول في الخروج من قلعة الملك. عندما ذهبت لرئيس الإصطبل طالبة منه أن يأمر بتجهيز عربة، ما كان منه إلا أن ابتسم فقط وأخذ يتساءل: "أي رسول؟ أية عربة؟ عربة تجرها كباش أم ثيران؟"

أجابته ماتشا بقولها: "فلتجرّها أنت إن لزم الأمر! سيذهب عنك الضحك فورا حين تعلم أن الملكة في حاجة إلى القابلة"

"لكن الخيول بالخارج!"

"إذن، أدخلوها ثانية، ولتسرعوا."

هنا سألها رئيس الإصطبل: "هل قمتِ أنتِ في يوم من الأيام بجمع خيول سمح لها لأول مرة بعد انقضاء فصل الشتاء بالخروج إلى المراعي؟"

ردت ماتشا: "لا، كيف يمكن لي أن أكون قد جربتُ ذلك الأمر؟ فرئيس الإصطبل هو أنت وليس أنا!"

حين بدأ عمال الإصطبل في محاولة الإمساك بحصانين كانت الشمس قد غربت بين لحظة وأخرى. لكنهم لم يهتموا بذلك. كما أنهم لم يلتفتوا كثيرا إلى تحول لون السماء في الشمال إلى الأصفر الداكن، ثم إلى الأخضر، مثل لون التفاح الذي لم ينضج بعد. لم يلحظوا وقتها سوى أن الخيول تزداد هياجا وجموحا أثناء هروبها من محاولات الإمساك بها.

ولكن مع حلول الليل فجأة تجمع القطيع سريعا، وظل واقفا في مكانه كأنه مقيد ببعضه البعض. كانت الظلمة شديدة لدرجة جعلت من الصعب تمييز الخيول، اللهم إلا البيضاء منها. وقف القطيع ساكناً دون أن يصدر أي صوت، كذلك سكنت الطيور المحلقة فوق السهول.

لم يكن العمال يسمعون في تلك اللحظة سوى صياحهم هم الموجه للخيول، والذي علا لدرجةٍ أفزعتهم. واستطاع ثلاثة أو أربعة منهم أن يستغلوا خوف الخيول، فاقتربوا من القطيع، ورموا بالزمام على حصانين أبيضين.

خرجت العربة من ساحة القلعة. وقد تزامن ذلك مع بدء هبوب عاصفة من جهة الشمال الغربي دفعت بالسحب المحملة بالأمطار أمامها، ثم قسمتها مثل السيف إلى نصفين لتدفعها أخيرا ناحية الأرض. عندها كان الظلام قد ابتلع المنطقة كلها. حاول سائق العربة

أن يظل على يسار الطريق في مواجهة العاصفة، وذلك بعد أن قام بالجلوس في الخلف بعيدا عن الأمطار. لكن كل ذلك لم يساعده كثيرا، إذ دفعت العاصفة الشديدة بالأمطار تحت غطاء العربة. كان همه الوحيد هو ألا يحيد عن الاتجاه الصحيح. فبالرغم من عينيه المفتوحتين بشدة، كان لا يرى أى شيء من حوله. كذلك شعرت الخيول بالخوف أكثر من مرة عندما كانت العاصفة تشتد في اتجاهها. أخذت العربة تميل تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار حتى كادت أن تنقلب، وأخذت تحتك بجذور الأشجار والأحجار على جانبى الطريق. حين تصلبت يدا السائق من البرودة لدرجة جعلته بالكاد يشعر باللجام، خطر بباله أن تكون العاصفة قد غيرت مسارها وصارت تهب من جهة الشمال. وقد زاد من قلقه تساقط ندفات من الثلج مع المطر على وجهه. حينئذ حدث نفسه قائلا: بالتأكيد أنا لست الأسوأ بين سائقى الملك كورماك، لكنى لا أعرف كيف عليّ أن أتم هذه الرحلة.

في أثناء ذلك كان الملك ومستشاره بريزال يلعبان الشطرنج، وقد أضاءت البهو شعلات قوية مثبتة في جوانبه، تجهز لها النار على الموقد خادمتان تستخدمان الخطاف والمنفاخ، وتحرصان على ألا يشتعل الفحم والخشب بشدة. سرى دخان أزرق في البهو بسبب العاصفة التي سدت فتحة التهوية. وقد أدمعت أعين الخادمتين بفعله، كما استمرتا في السعال بصوت خافت لتتجنبا إزعاج الملك

ومستشاره. كانتا تتراجعان إلى الخلف كلما نفذت الريح الشديدة إلى داخل فتحة التهوية فأحدثت فيها صوتًا مثل صوت دقات الطبول أو صوت النفخ في البوق.

لم يكن فكر الملك منصبًا على اللعب، وقد ظهر ذلك جليًّا في كل مرة كان يتحسس فيها ذقنه بأصابعه، أو يحرك فيها شعره الداكن خلف أذنيه ليؤجل تحريك أشكال الشطرنج.

"على شواطئ دولتك سيصارع كثيرٌ من الناس الموتَ في هذه الليلة" تلك كانت كلمات بريزال، الكاهن في بلاط الملك، ذلك الرجل الحكيم الذي كان بإمكانه رؤية المستقبل.

أومأ الملك كورماك. فاستطرد بريزال قائلا: "في الغرب وفي الشمال سيكون تيار العاصفة مفزعا. أرى جزرا كثيرة تغرق، وسفنا عديدة ترتطم بالصخور."

"كم من الوقت يمكن للعاصفة أن تستغرق؟"

"كل شيء سيتحدد بحلول منتصف الليل. عندها يتبدل القمر، ويأتي التيار من جديد. إذا هدأت العاصفة حتى ذلك الحين، فسينجو كثيرون."

قام الملك كورماك من مكانه ومشى من أول البهو إلى آخره. كان متوسط الطول وعريض المنكبين، يتحرك بهدوء وبشيء من البطء. راقب الكاهن الملك وهو يفكر بأن من يراه كما هو الآن يصعب عليه تخيله وهو يضرب بسيفه بسرعة البرق عندما يحتاج الأمر إلى ذلك. فقط من كان يعرف والده، آرت الدب، ومن سمع بجده، كون ذي المائة معركة، يستطيع أن يقيمه بشكل صحيح. لا شك أن إرين تحظى بملك عظيم صالح.

قال كورماك: "لماذا يجب أن يحدث هذا في تلك الليلة بالتحديد!"

هنا فطن الكاهن إلى ما قصده الملك، فقال له: "سيكون الأمر جيدا إذا استطاعت الملكة أن تؤجل ولادة الطفل. فالنجوم....."

هنالك توقف الكاهن عن الكلام.

سأله كورماك: "بم تتكهن؟ لا تخفِ عنّي شيئًا!"

"ستكون الفتاة جميلة، سيضاهي جمالها ولطفها جمالَ ولطفَ كل فتيات إرين. ولكن لهذا السبب ستسيل دماء كثيرة، دماء أنبل الرجال في بلادنا. لكن لو استطاعت الملكة أن تنتظر... لو يأتي الطفل في ساعات الصباح.."

"أحضروا ماتشا!" صاح الملك بصوت مرتفع جدا لدرجة جعلت الخادمتين تتصرفان على الفور.

جاءت ماتشا. كان جزء كبير من ضفائرها التي غلب عليها اللون الأبيض مفكوكًا، وكانت خصلة من شعرها تنسدل على وجهها. بدا أيضا من عضها على شفتها السفلى شدة تأثرها.

أمسك الملك بمعصمها وسألها: "كيف حال الملكة؟"

أجابت ماتشا: "إنها تعاني بشدة!"

تردد كورماك، ثم أشار ناحية بريزال وهو يقول: "استمعي إلى ما يقوله الكاهن!"

علّق الكاهن على كلام الملك مُصححًا له: "بل ما تقوله النجوم، ليس ما أقوله أنا."

كانت ماتشا تسد أذنيها أثناء انصرافها من البهو، أخذت تغمغم قائلة: "تؤجل الولادة! تؤجلها حتى ساعات الصباح! لا، لا، لا يمكن أن يطلب أحد منها ذلك!"

قبل أن تدخل ماتشا إلى الملكة توقفت للحظة على السلم حتى تهدأ.

سألتها الملكة: "ماذا كان يريد كورماك؟"

مسحت ماتشا العرق الذي تصبب من جبينها وقالت لها: "كان يسأل عن حالك."

"لا تقولي لي إنه أرسل خادمتين يسألان عنك لهذا السبب!"

"لا، ليس لهذا السبب" أخذت ماتشا تفكر مليًا كيف يمكن أن توصل للملكة كلام الكاهن. أخيرًا قالت: "عندما يجلس رجلان في ليلة كهذه وحدهما، وعندما يكون أحدهما هو ذلك المستشار! لم أشعر قط بارتياح تجاهه. لكننا متفقتان على ذلك، أليس كذلك يا آيتشه؟ قد يكون من الجيد، لا، بل من الضروري طبقًا لكلامه ألا يأتي الطفل قبل صباح الغد – ذلك بسبب النجوم.. يتحدث وكأنه صاحب ذكاء خاص! المؤسف في الأمر أن الملك يصدقه في ذلك" هزت ماتشا كتفيها واستطردت: "إذن، ليس من الضروري أن يحصل على الطفل"

أخرجت الملكة كل ما كان في جعبة ماتشا مما قاله الكاهن، وفى النهاية قالت لها: "ساعدينى على النهوض" جاء طلب الملكة على نحو جعل ماتشا لا تجرؤ على الاعتراض. وبالرغم من أنه كان من الصعب على الملكة نزول السلم، إلا أنها دخلت البهو وهى منتصبة القامة.

عندما رآها كورماك صاح: "آيتشه!". أسرع نحوها وأوصلها إلى المقعد. بعد أن جلست استدارت بوجهها ناحية الكاهن، ثم بدأت الحديث معه بقولها: "لقد تنبأتَ لي بأني سألد طفلًا وستكون فتاة. قلتَ لي إننا أنا والملك سنسعد ونحن نراها تكبر أمامنا. أما اليوم فقد

طالعتَ النجوم لتقرأ فيها أن دماء أنبل رجال إرين سيسيل بسبب جمالها.. هذا إن لم أستطع تأجيل الولادة حتى الصباح. ها هو ردي عليك وعليك أنت أيضا يا كورماك ماك آرت: حتى إنْ كان ذلك في استطاعتي، فلن أقوم به. دماء أنبل رجال إرين!" قالت وهي تشعر بالأسى: "إنهم يقطعون رؤوس بعضهم البعض من أجل ثور، يقذفون بالسهام في صدور بعضهم البعض من أجل مرعى، يغمدون السيوف في أجساد بعضهم البعض بسبب كلمة غير مفهومة خرجت من فم شخص شرب الخمر حتى الثمالة. - وماذا عن الحب؟" انتقلت نظرات الملكة بين الرجلين، ثم أكملت حديثها: "إنّ حبَّ امرأة يستحق مائة، بل ألف مرة أن تسيل من أجله الدماء. هذا ما كنت أريد قوله لكما.. لك يا ملك إريـن المعظم كورماك، ولك أنت أيضا يا بريزال، يا مستشاره."

ظل الرجلان جالسين في مكانهما مثل الحجر، بينما ساعدت مانشا الملكة على الخروج.

كان السائق لا يزال يقود العربة في الليل، ولا يعرف أين هو. ترك للخيول تحديد الاتجاه الذي تريد أن تجري فيه. لكنه فجأة أحس بأنه يستطيع رؤية أسطح بعض المنازل على الناحية اليمنى، وبدا له أن يحدث ضوضاء إلى أن يفتح أحد بابه، ويخبره أين هو. وبالفعل

اتجه صوب المنازل. وفجأة تقدمت الخيول ناحية المنازل وجمحت. لكن السائق جذب زمامها إلى الخلف بكل قوته. عندئذ ظهر له وسط ظلمة العاصفة شخص اعترض طريق الخيول واستطاع أن يوقفها بمنتهى السهولة.

صاح السائق: "أين أنا؟ وأية عائلة تملك هذه المزرعة؟"

ولكن هذا الشخص بادره بسؤال بدلًا من أن يعطيه إجابة: "هل تريد الوصول إلى فنجوالا كي تأخذها إلى تارا حيث بلاط الملك؟"

رد السائق قائلا: "تمامًا"

"إذن دعني أركب، فأنا كنت هنا في انتظارك."

"ولكن كيف ذلك والطفل سيولد قبل ميعاده بخمس عشرة ليلة!"

قال الشخص الذي اتضح أنه امرأة: "لا تكثر في الأسئلة، هناك حاجة إليّ". صعدت المرأة إلى العربة وهي تقول: "دع الخيول لي، فأنا أعرف الطريق أفضل منك."

وقبل أن يصيب السائقَ القلقُ كانتْ قد أمسكت بالزمام في يدها، وحولت اتجاه العربة، وانطلقت بها بسرعة كبيرة جعلت عجلاتها تُحدث صريرًا. كذلك تناثر الطين، وتطايرت الأحجار في الهواء، مما جعل السائق يستعين بكل الأرواح الطيبة كي تسانده.

أثارتْ تلك المرأة دهشة السائق. لكنه كلما أراد أن يتحدث إليها، كانت تشتد خطورة تلك الرحلة لدرجة تجعله عاجزًا عن الكلام.

ومع انتصاف الليل وتبدل القمر كانا قد وصلا إلى قلعة الملك. أتتِ الملكة بطفلتهــا إلى الدنيــا فــي تلك الساعة. أسمتهــا جرينـــه. وتحديا للنبوءة الشؤم أضافت إلى اسمها كلمة الشمس ليصبح جرينه – الشمس.

حصان من أجل جرينه

"جرينه! جرينه، تعالي هنا! جرينه، أين أنت؟"

وقفت الملكة عند باب منزل السيدات، ووجهتْ نظرها إلى الساحة الأمامية. "جرينه! لديّ مفاجأة من أجلك!" لم تتلقَ الملكة أيَّ رد، كما أنها لم تلمح في أي مكان طرفًا من القميص الأزرق الذي كانت جرينه قد ارتدته اليوم. عادت الملكة إلى داخل المنزل.

"ماتشا، هل رأيت جرينه؟"

خرجتْ ماتشا من حجرة النوم بعد أن أعدت فراش الملكة: "لم أكن لأتركك تنادينِ على ابنتك لو كنت أعرف مكانها!"

قالت الملكة: "ربما تكون صعدت إلى البرج."

"لا أظن ذلك. لو كانتِ هناك لسمعتْ صوتك. لا، لا.. لا أود أن يتجه تفكيري إلى أنها قد تكون عند البحيرة."

"تقصدين أنها ذهبت مع فنجوالا ثانية للسباحة؟"

قالت ماتشا: "بل أقصد العكس: فنجوالا هي التي ذهبت معها."

مسحت الملكة بيدها القماش الناعم المفرود على المنضدة الذي من المفترض أن يصنع منه معطف لجرينه، ووضعت عليه مشبكا ذهبيا صغيرا. دون أن تنظر إلى خادمتها العجوز سألتها: "ماتشا، هل تريدين أن تقولي لي بذلك التعليق شيئًا محددًا؟"

أجابت ماتشا: "نعم. أنت أيضا راودتك تلك الفكرة كثيرا"

اقتربت الملكة من ماتشا وقالت: "هل بالفعل تعتقدين أن فنجوالا جنية؟"

هزت ماتشا كتفيها. "ربما – وربما لا"

هنا قالت الملكة "إذا صحّ ذلك يكون من الممكن جدًا أن تقع الطفلة في أسرها. هل أنتِ قلقة على جرينه بسبب ذلك؟"

"لا أعرف. لا أستطيع وصف ذلك الإحساس. فأحيانًا، حين تخرجان معًا وتغيبان لفترة طويلة، يسيطر عليّ القلق وأفكر بأنهما قد لا تعودان ثانية"

"ولكن يا ماتشا، ألا يمكن أن يكون ذلك كله من محض خيالنا بسبب حبنا الشديد لجرينه؟ هل هناك مربية يفوق حرصها حرص فنجوالا على طفلتنا؟ هل حظي أي طفل من قبل بمربية أفضل منها؟ ألا نغار أنا وأنت بعض الشيء بسبب تعلق جرينه الشديد بها؟"

لم تجب ماتشا. استمرت الملكة في حديثها وكأنها تريد من خلاله أن تهدئ ماتشا، بل وتهدئ نفسها أيضا: "لقد أخذها السائق من أسرتها وأحضرها إلى هنا"

ردت ماتشا قائلة: "لم يحضرها من منزلها، وإنما كانت تقف أمام الحائط الحجري، في تلك الليلة المرعبة. كذلك فإن الخيول وقتها قد جمحت، وهذا دليل كاف."

"لكنها ذكرت للسائق اسمها"، أصرت الملكة على ذلك. "لا يمكن لجنية أن تفعل ذلك أبدا"

"هذا بالتحديد هو ما يقلقني. هي لم تقل له اسمها آنذاك، وإنما سألته فقط إذا ما كان يبحث عن فنجوالا. لو تعرفين يا آيتشه كم مرة طلبت فيها من السائق أن يحكي لي ذلك" صمتت ماتشا برهة، ثم استطردت قائلة: "هل رأيت في مرة عينيها في الظلام الدامس؟ عندما لا تكون هناك شعلة أو جذوة نار تتوهج في الموقد؟ كنت أظن أنني أتخيل الأمر حتى سمعت جرينه في مساء أحد الأيام تقول لها: عيناك تضيئان يا آلا. عندئذ قامت فنجوالا بسرعة وأخذت تنفخ في الرماد. في الرماد يا آيتشه الذي سرعان ما تحول إلى نيران مشتعلة بقوة. وفي كل مرة تعودان فيها من البحيرة تحكي جرينه عن البجع الكثير الذي رأته هناك. أنا أسألك الآن يا آيتشه: هل سبق لك أن رأيتِ في مرة بجعات كثيرة هناك؟"

"نعم، أحيانا."

"ولكن ليس دائمًا. أما عندما تذهب فنجوالا مع جرينه إلى هناك، فدائما ما تجدان الكثير منها."

قالـت الملكـة: "مـاذا تعنـي كلمة 'كثير' بالنسبة لطفلة مثل جرينه!"

تنهدت ماتشا وسكتت.

"إذا صحَّ كلامكِ يا ماتشا، ففنجوالا إذن جنية طيبة. لأنها إنْ لم تكن ذلك.. ما كانت تأخذ جرينه دائما معها إلى البجع." بعد هذه الكلمات لملمت الملكة القماش الذي ستحصل جرينه منه على معطف، ثم ألقت به ثانية في مكانه على المنضدة وقالت: "ماتشا، لا، ما هذه القصص التي نختلقها هنا أنا وأنت!". أخذت الملكة حزامها الفضيّ من على المقعد ولفته على ردائها وهي تقول: "أتعلمين شيئا، فلنذهب الآن بحثا عن الاثنتين، وعندها سندرك أنّ كلّ ما قلناه كان مجرد أشياء غبية."

ذهبتا في البداية إلى المخزن. فتحت ماتشا الباب للملكة، لكنها اصطدمت فورا بخادمة كانت تحمل على ذراعيها قطعا ضخمة من خشب الزان.

قالت لها ماتشا: "تمهلي دائما، ستصلين أيضا في وقت مناسب إن تمهلت. هل تتوجهين بهذا الخشب إلى غرفة التدخين؟"

"نعم، ودائما ما يكون الطباخ في عجلة من أمره."

هنا سألتها الملكة: "وماذا تدخنون؟"

"ندخن في إحدى الغرف لحم الخنزير. وقد أحضر الفلاحون اليوم في الصباح الباكر الكثير من الأسماك، كذلك قام العمال بذبح بعض الحيوانات. لدينا عمل كثير."

"هذا لن يمنعنا من الدخول والسؤال عن جرينه" قالت ماتشا ذلك، ثم دخلت إلى المخزن.

كانت ملقاة على الأرض الحجرية في المخزن بقرةٌ مذبوحة ومقطعة، بينما كانت تساعد الطباخ في تقطيع اللحم أعداد كبيرة من الخدم. كان الطباخ منشغلا كثيرا بإصدار الأوامر للخادمات إلى الحد الذي جعله لا يلحظ قدوم الملكة وماتشا.

"لا تتمشين ببطءٍ هكذا مثل البط الذي أصابه الشلل! قلت أمسكن بشدة. هل عليّ أن أترك السكين يقطع لحمي أنا؟ هنا، أمسكن بشدة!"

كانت الخادمات تتبادلن النظرات فيما بينهن، وتكتمن ضحكاتهن. فكلهن كن يعرفن كبير الطباخين جيدًا.

نقرت ماتشا بإصبعها على كتفه وقالت: "لحظة واحدة. أريد أن أسأل الخادمات عن شيء ما."

التفت الطباخ إليها وهو يقول: "هل لابد أن يكون ذلك الآن –" عندها رأى الملكة، فهبّ واقفًا من مكانه ورمى السكين جانبا. أخذ يمسح يديه في قميصه، ثم دفع بمقعد أمام الملكة. لكنها أشارت إليه بأنها لا تود الجلوس وقالت: "نريد فقط أن نسأل إذا كانت جرينه قد مرت من هنا."

أضافت ماتشا إلى كلام الملكة: "فنجوالا وجرينه"

كانت هناك خادمة صهباء تجلس في الركن حيث توجد مطاحن الحبوب. سمعت سؤال الملكة فأجابت: "نعم، كانت هنا، ولكن كان ذلك منذ برهة. أرادت ابنة الملك كورماك أقراصا من الخبز."

سألتها ماتشا: "هل ذكرت إلى أين تريد الذهاب مع فنجوالا؟"

ردت الخادمة الصهباء التي لم تتوقف عن طحن الحبوب أثناء كلامها: "لا، لم تقل ذلك. لكن لا بد أن تكونا قد ذهبتا إلى البجع، مثلما تفعلان دائما عندما تأتيان لأخذ أقراص الخبز"

رددت ماتشا كلام الخادمة: "إلى البجع.. مثلما تفعلان دائما.."

عندما كانت الملكة وماتشا تعبران من أمام صالة الاحتفالات، التقيتا في طريقهما صانع السروج الذي عاش في بلاط الملك قدر ما عاشت الملكة نفسها. فقد أحضرته الملكة معها من بلاط والدها حين جاءت إلى تارا. لم يكن هناك من هو أفضل منه في صنع أطقم الخيول. سعدت الملكة كثيرا برؤيته، وسألته عن حاله، فأجاب قائلا: "لا يوجد هناك إطلاقا ما يمكن أن أشكو منه. فالعمال المهرة يتم تقديرهم في تارا بنفس القدر الذي كان يتم به في بلاط والدك، أيتها الملكة. أما عن زوجتي وأولادي فهم أيضا في أفضل حال. ابنتي تزوجت من رجل فاضل، وابني الأكبر يساعدني بكل ما يستطيع، أما بالنسبة لأصغر أبنائي فرأسه مليء بالأوهام. لا يستهويه العمل في ورشتي، بل يريد أن يصبح جنديا وينضم إلى رجال فين" ضحك صانع السروج، ثم استطرد قائلا: "نعم، أيتها الملكة، ما يقوم به فين من بطولات يطارده في الأحلام"

كانت ماتشا تنتظر فقط أن يتوقف صانع السروج عن الحديث حتى تسأله سريعا: "ألم ترَ ابنتنا جرينه عن طريق المصادفة؟"

وضع صانع السروج قطعة الجلد التي كان يمسكها تحت ذراعه وأطبق عليها، ثم أجاب: "بلا، مرت عليّ ابنة الملك كورماك

في الورشة، وطلبت مني أن أصنع لها حزاما أحمر يتماشى مع قميصها الأزرق. كانت تريده عريضا، في عرض يدها الصغيرة. كانت أيضا تريد حقيبة في حجم القمر يمكن تعليقها بحامل طويل على الكتف. طلبت مني أن تكون جاهزة في الغد"

سألته الملكة: "ماذا ستفعل بحقيبة؟"

"تريد أن تضع فيها الخبز. تقول إنه يتفتت دائما، وأن هذا الفتات لا يعجب المتسابق الصغير"

هنا قالت ماتشا بصوت مرتفع: "الخبز الذي تأخذه للبجع!"

قال صانع السروج: "خبز من أجل البجع؟ لا، بل من أجل الخيول."

سألته الملكة: "من أجل من؟"

أجاب صانع السروج: "من أجل الخيول، فهي تذهب كل يوم إلى الأفراس."

بدا على ماتشا التوتر وهي تسأل: "وحدها؟"

"لا، مع فنجوالا."

سألته الملكة: "هل أنت متأكد من ذلك؟"

"نعم، متأكد. فأنا أستطيع أن أرى جرينه من داخل ورشتي. دائما ما ينتظرها أحد العمال عند سور المرعى. ثم يحملها على أكتافه ويركض بها إلى داخل المرعى"

هنا سألته ماتشا: "منذ متى يحدث ذلك؟"

"ربما منذ أربعة أو خمسة أيام."

قالت له الملكة: "أنت لا تتصور مدى سعادتي بما أخبرتني به. إذا احتجت إلى أي شيء فقط أعلمني بذلك. وبلغ زوجتك تحيتي."

"شكرا لك أيتها الملكة، شكرا"

ما كاد صانع السروج يبتعد عن مرمى السمع حتى انخرطت الملكة في الضحك: "ماتشا، ماتشا، يا لك من حمقاء! وأنا لست أفضل منك بكثير."

جاء رد ماتشا سريعا: "لتقولي فيّ ما تشائين. ففي كل الأحوال اطمأن قلبي. هل نذهب الآن إلى الخيول يا آيتشه؟"

"بالتأكيد ليس إلى البجع" هكذا أجابت الملكة ماتشا، ثم تأبطت ذراعها.

خرجتا من قلعة الملك عبر البوابة الجنوبية. كان الطريق الواسع الممتد أمامهما يؤدى إلى الوادي. بفعل العربات الكثيرة التي كانت تمر فيه، وبسبب سقوط الأمطار الغزيرة عليه، بقي شريط من العشب الأخضر في وسطه. أما أسفل الطريق، عند النهر، فقد كانت تقع خلف سدود حجرية منازل الفلاحين والخدم الذين ينتمون إلى بلاط الملك. كانت الريح تهز الدخان المتصاعد فوق أسطح المنازل. كما كانت الكلاب تنبح والدجاج يصيح.

على الجانب الأيمن من القلعة كان يمتد طريق أضيق. لم يكن منحدرا ولا منبسطا، لكن كل من أراد الوصول إلى مراعي الخيول بسرعة كان يسلكه بسبب قصره. وعلى الرغم من أن الملكة لم تكن في عجلة من أمرها، إلا أنها اتخذت مع ماتشا هذا الطريق. كانتا تتوقان إلى مشاهدة جرينه من على ارتفاع.

وصل إلى سمعهما وهما تمشيان في الطريق حديث الحراس الذين يقفون على سور القلعة، ودندنة الطيور وسط الغابات، بالإضافة إلى رفرفة الطيور المغردة فوق الطريق.

كان من السهل تمييز المرعى الذي تجري به الأفراس من بعيد، حيث إن كثيرا من الأفراس كان معها صغارها.

أرادت ماتشا أن تقول: طبعا، سحرتها الخيول الصغيرة! – لكن الملكة ظلت واقفة في مكانها.

سألت: "هل تستطيعين أن تلمحي جرينه؟"

وضعت ماتشا يدها فوق عينيها لترى بوضوح. "أرى عمالا، لا شيء سوى عمال. ها هو رئيس الإصطبل. أما جرينه؟ حتى فنجوالا لا أراها" الآن أصبحت الملكة وماتشا في عجلة شديدة.

عندما رأى رئيس الإصطبل الملكة قادمة فتح بوابة السور، ثم أسرع نحوها بالقدر الذي لا يقلل من هيبته أمام العمال وقال: "أنا في خدمتك."

هزت الملكة رأسها وقالت: "لا أريد أن أعطلك، فابنة الملك كورماك تفعل ذلك كثيرا. أود فقط أن أعرف منك مكانها"

" لم تعد هنا عند الأفراس، عادت إلى القلعة، إلى الملك"

سألته ماتشا "إلى الملك؟ ألا يمكن أن تكون قد أخطأت السمع؟"

"أخطأت السمع؟" تبدل وجه رئيس الإصطبل لتطرأ عليه ملامح الجدية الشديدة. "هذا مستبعد تماما. لقد عادت لتشكو مني."

نظرت الملكة إلى ماتشا.

ضحكت ماتشا وقالت: "نعم، إنها ابنتنا جرينه!"

"مِمَّ تشكو؟" أرادت الملكة أن تعرف السبب.

"أولا، كما سبق وأن ذكرتُ، مِنِّي. وثانيا من عمال الإصطبل، وثالثا من رجال فين"

قالت الملكة: "هل يمكن أن تشرح لي ذلك بوضوح أكثر!"

بدا الحرج على رئيس الإصطبل: "يؤسفني أنه لا يوجد مقعد هنا."

لكن الملكة أزالت عنه الحرج بقولها: "لا داعي للمقعد."

أضافت ماتشا إلى كلام الملكة: "هلا انتهيت قبل أن تغيب الشمس!"

لم يعرها رئيس الإصطبل أي اهتمام. بدأ في سرد ما حدث قائلا: "هكذا كان الأمر. في الفترة الأخيرة كانت ابنة الملك كورماك تأتي كثيرا إلينا هنا. في المرة الأولى وقفت فقط مع المربية عند السور وربتت على الخيول. كان معها خبز، وهو ما تدركه الخيول بسرعة. أما في المرة الثانية فلم تقف عند السور، وإنما أرادت الدخول، والتوجه في الأساس إلى الأمهار. لم يلب العمال طلبها. فلا أحد يستطيع التكهن بما قد يسفر عنه ذلك، ولا أحد يريد أن يلام إذا أصاب ابنة الملك أي مكروه. لكن المربية تدخلت. ولتكن كل الأرواح

الطيبة في عون الشخص حين تنظر إليه – يريد أن يقول لا، لكنه يقول نعم. هكذا حمل أحد العمال ابنة الملك فوق كتفيه، وأخذها بحصان إلى داخل المرعى."

قاطعته ماتشا سائلة: "وماذا عن المربية؟"

"لم تتحرك خطوة واحدة من جانبها."

فسارعت ماتشا بسؤال ثان: "والخيول؟"

"كانت هادئة مثل الحملان."

عنـــدئذ قالت الملكـــة: "أنا لا أفهـــم فقـــط، لماذا إذن تريد أن تشكو للملك؟"

تابع رئيس الإصطبل حديثه: "السبب هو المهر الذي تطلق عليه ابنة الملك اسم 'جمال البجع'"

سألته ماتشا: "بِمَ تسميه؟"

أبدى رئيس الإصطبل تذمره منها وهو يكرر: "'جمال البجع'. لا بد أن أعترف أن ابنة الملك الصغيرة تفطن للحصان الذي يصبح في يوم من الأيام ذا بهاء وفخامة، بالرغم من أنها لم تتعد الأعوام الخمسة. 'جمال البجع' هو مهر ولد في العام الماضي، وهو ما زال

يجري بصحبة أمه حتى الآن. لكن بالأمس تم اقتياده من قبل العمال إلى مرعى آخر؛ لأن الفرس ستلد غدا أو بعد غد من جديد. استاءت ابنة الملك الصغيرة بشدة من أن 'جمال البجع' لم يعد موجودا هنا. لكن حدث بعد ذلك ما كان وقعه عليها أسوأ بكثير. جاء اليوم في الصباح الباكر رجال فين وقاموا بانتقاء الخيل التي سيأخذونها معهم. وقد كان من بينها 'جمال البجع'. عندها فطن الجميع إلى أن ذلك الأمر سيفقد ابنة الملك صوابها."

سألته ماتشا: "هل بكتْ؟ هل صرختْ؟"

أجاب رئيس الإصطبل: "لم تفعل هذا أو ذاك، بل ذهبت إلى كل عامل في الإصطبل، ورمقته بنظرة عميقة، ثم سألته: 'لم فعلت هذا؟' بعدها جاءت إليّ وقالت لي: 'لمَ سمحت بذلك؟' – فأجبتها: 'هذا يحدث كل عام. يأتي رجال فين ليختاروا لأنفسهم خمسة عشر حصانا طبقا للاتفاق المبرم بينهم وبين الملك المعظم.' هنالك قالت جرينه: 'لكن أنا و'جمال البجع' نريد أن نظل معًا. لقد تعاهدنا على ذلك.' وضحكنا أنا." هكذا أكمل رئيس الإصطبل كلامه "والعمال من قولها" وبعد أن انتهى استغرق في تفكيره.

حاولت ماتشا مواساته بأن تقول له: "لن يصدر الملك فورا أوامره بقطع رأسك لهذا السبب."

"وهل تظنين أنني أخشى ذلك؟ لماذا لم أتعامل مع ابنة الملك بجدية! ليتنى فعلت"

وقفت جرينه مع فنجوالا بجانب الباب العريض الذي يؤدي إلى البهو. كان مفتوحا بسبب دفء الجو في هذا الوقت من الصيف. سرى من الشرفة العلوية للبهو دخان أسود أتى من شواء قطع كبيرة من اللحم على أسياخ تقطر منها الدهن وسقط علِى نيران الموقد.

لم تجرؤ جرينه على الدخول طالما كانت تسمع صوت الشاعر الذي أحضره رجال فين معهم، والذى كان ينشد أبياتا يمتدح فيها جمال، وقوة، وجلد، وشجاعة خيول تارا الأصيلة. ضمن أبياته أسماء الأفراس والأحصنة، وحكى فيها عن المعارك الحربية، وكذلك سباقات العربات التي تفوقت فيها خيل تارا على الخيل الأخرى.

تنهدت جرينه أكثر من مرة. كانت أثناء وقوفها أمام الباب ترتكز كل فترة على إحدى ساقيها. فقد أطال الشاعر كثيرا. أمسكت فنجوالا بيدها وهمست لها: "في يوم من الأيام، عندما تكبرين يا جرينه، سيتغنى هذا الشاعر أيضا 'بجمال البجع' وبابنة الملك

كورماك الصغيرة التي تجرأت على الدخول أمام والدها وضيوفه، لأنها قطعت عهدا مع هذا الحصان."

"هل تعنين ذلك بالفعل يا آلا؟"

"بكل تأكيد، إذا قمت بذلك."

"لست خائفة، سوف ترين. وأنت سوف تفكرين في بشدة أثناء قيامي بذلك، أليس كذلك يا آلا؟" ضغطت فنجوالا على يدها تشجيعا لها.

عندما دوت الأنغام الصادرة من القيثارة من داخل البهو أيقنت فنجوالا وجرينه أن الوقت قد حان. كان الشاعر قد أنهى نشيد المديح. لكن جرينه لم تتحرك من مكانها. نظرت إليها فنجوالا لتجدها تدس إصبعها في الذيل العريض المنسدل من قميصها الطويل.

الآن سمعتا الملك يتحدث. في البداية شكر الشاعر على مديحه للخيول، ثم توجه بعد ذلك لرجال فين، ودعاهم لأن يأكلوا ويشربوا معه. جلس الضيوف على المقاعد الموضوعة على جانبى الممر الذي يتوسط البهو. أما الملك كورماك، فقد جلس على مقعد مرتفع، موضوع بشكل أفقى في مواجهة مقاعد الضيوف، وإلى جانبه الكاهن، وعلى جانبه الآخر جلس صبى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما تقريبا، وجهه عريض بعض الشيء، لكن ملامحه منتظمة. كان شعره الناعم

مصففا من الجبين إلى الخلف مثل الرجال، وقد أضفى عليه الضوء المشع من نار الموقد لونا أحمر. جلس ينظر بعينيه الرماديتين إلى كل ما حوله في رزانة. كانت تصرفاته طبيعية بشكل كبير، كأنه لا يجلس لأول مرة إلى جانب ملك. هذا الصبى كان أويسين، ابن قائد الجيش ذى السمعة الواسعة، فين.

حين جاء الخدم بالكؤوس، قال الملك كورماك: "سأشرب نخب الاختيار الجيد الذي قمت به اليوم مع رجال والدك!" شرب الملك، ثم ناول أويسين الكأس.

فرح الرجال الجالسون على المقاعد بهذا التكريم الذي حظي به ابن القائد فين.

"وأنا أريد أن أشرب نخب عهدك لنا الذي تجدده في كل عام، أيها الملك كورماك ماك آرت!" ما إن وضع أويسين الكأس على فمه حتى رأى جرينه واقفة أمام المقعد الذي كان يجلس عليه مع الملك. أصابته دهشة شديدة لرؤية فتاة صغيرة أمامه، وكاد أن يشرق.

عندئذ أخذ الملك منه الكأس وأعطاها إلى الكاهن. ثم وجه سؤاله لابنته: "جرينه! جرينه، ماذا تريدين من هنا؟ هل هربت من مربيتك؟"

هزت جرينه رأسها نافية: "لا، آلا تقف عند الباب. هى أيضا تريد الدخول، إن لم تصدق أننى و'جمال البجع' قد قطعنا عهدا فيما بيننا. فقد سمعت آلا حديثنا. ولذلك.." - هنا اقتربت جرينه من أويسين موجهة إليه حديثها - "لا تستطيع أن تأخذ ذلك الحصان معك"

سألها الملك: "عن أى حصان تتحدثين؟"

"عن 'جمال البجع'. إن عمال الإصطبل ورئيسه هم السبب في كل ذلك. فهم الذين قاموا بالأمس بإبعاد 'جمال البجع' عن الأفراس ووضعوه في مرعى آخر، ثم جاء اليوم هؤلاء الرجال." - أشارت جرينه إلى أويسين والآخرين - "واختاروا 'جمال البجع' من أجل قائدهم فين"

جذب الملك جرينه بين ركبتيه، وسألها: "عن أى عهد تتحدثين؟"

"تعاهدنا أنا و'جمال البجع' أن نبقى دائما سويا، دائما وإلى الأبد. 'فجمال البجع' يريد أن ينطلق بى في سباق العربات كالعاصفة لكى أفوز. يريد أن يحملنى عندما لا أستطيع الجرى حتى أستجمع قوتى من جديد"

كاد الجالسون أن ينفجروا في الضحك لو لم تكن جرينه ابنة الملك كورماك.

سأل الملك ابنته: "جرينه، هل أطلقت أنت على ذلك الحصان اسمه؟"

أجابته "لا. كان ذلك هو اسمه دائما. 'فجمال البجع' يأتى من قلعة الجان 'بروف نا بوينه'"

"ولكن يا جرينه!"

"نعم يا أبى، هذه هي الحقيقة."

كان الكاهن يحدق بجرينه التي لم تغب أيضا عن عينيّ فنجوالا الواقفة بالباب، في حين صمت جميع الجالسين.

أبعد الملك جرينه عنه قليلا، ثم قال لها: "لكن يا جرينه، ما هو الحل الآن؟ تعهدت أن أعطى لفين في كل عام خمسة عشر حصانا، يختارهم حسب رغبته، ويستثنى من ذلك فقط مرعى الأفراس. أنا أريد أن أحافظ على عهدى. والآن يتناقض عهدك مع عهد الملك"

"وأنا ابنة الملك وأريد أيضا أن أتمسك بعهدى مثلك."

تحولت جرينه، الفتاة الصغيرة، النحيفة في قميصها الأزرق الذي تدلت عليه ضفيرتان شقراوتان بلغتا الكتفين إلى محور الاهتمام، ومحط الأنظار وسط الرجال المجتمعين في البهو.

أخذ الملك يفكر كيف يستطيع أن يستمهل جرينه ويصرفها من البهو بحجة تقبلها. ولكن أويسين قطع عليه أفكاره بقوله: "لازال عهدك لنا ساريا، أيها الملك كورماك. لقد صار الخمسة عشر حصانا لنا، أليس كذلك؟"

أومأ الملك.

"إذن لابد أن يسرى عهدك أنت أيضا، يا ابنة الملك الصغيرة. وفين، أبى، سوف يرحب بقرارى. إننى أهديك الحصان 'جمال البجع'."

من المؤكد أن الشاعر قد قام في هذه اللحظة بتأليف أغنية جرينه و'جمال البجع'.

نـــداء البجـــع

فى اليوم التالى توجه رجال فين باكرا إلى ديارهم ممتطين خيولهم، يتقدمهم أويسين في عربة مع أحد أهم رجال أبيه. كانوا قد جمعوا كل حصانين من الأحصنة الجديدة إلى جانب بعضهما البعض، ثم ربطوهما في سروج الخيول التي كانوا يمتطونها. لم تعهد خيول تارا هذا القيد، لذا أخذت تجذب الزمام بشدة، إما رافضة التحرك من مكانها أو محاولة الهروب بكل ما أوتيت من قوة.

مع ذلك كله بقى لهؤلاء الرجال متسع من الوقت كى يمعنوا التفكير فيما حدث في بلاط الملك. لم يستغرقوا وقتا طويلا حتى بدأوا في الإفصاح عما كان يدور بخواطرهم جميعا.

قال أحدهم: "لقد تركنا خلفنا حصانا جميلا."

هز زميله رأسه وقال: "هذا صحيح، ترى كيف سيصبح بعد أن يمر عليه صيفان أو ثلاثة ويبلغ أشده؟"

تدخل ثالث في الحديث قائلا: "لا تشوبه شعرة سوداء واحدة. هل رأيتموه – أبيض مثل البجع!"

صاح الفارس الذي كان خلفهم: "بل ‘جمال البجع’! كما أقرت الطفلة الصغيرة بطريقة تثير الدهشة"

علق الفارس الأول قائلا: "لابد أن هذا ينبئ عن شيء."

فسأله زميله: "عم؟"

"بأنها تستطيع أن تفرض إرادتها على الرجال. يبدو لي أنها قامت اليوم بأول اختبار لقدراتها"

سأله زميله في تحفظ: "هل تظن أن أويسين سيكون من بين هؤلاء الرجال؟" عندئذ أخذ الآخرون الذين كانوا يستمعون يأنون.

سأل الأول مرة أخرى: "وهل اعترض أحد منا على ذلك؟ فليكن! – ولكن ما حدث ينبئ أيضا، بأن أفضل الرجال في بلادنا سيتقاتلون من أجلها" ضحك فارس من فرسان الصف الثاني وصاح: "لازال هناك وقت طويل! ولكن إذا وجدت دائما من تحركه هكذا بإصبعها مثل أويسين، فأقصى ما سيقوم به النبلاء في هذه الحالة هو التراشق بالكؤوس، ليس أكثر."

أوقف أويسين العربة وانتظر حتى اقترب منه الركب. كان تفكيره منصبا في تلك اللحظة على أشياء أخرى. وجه حديثه إلى القائد الذي كان

بجانبه قائلا: "ما رأيك فيما قالته جرينه من أن هذا الحصان آت من 'بروف نا بوينه' ؟"

مسح القائد شفتيه بظهر يده وقال: "أويسين! من الواضح أن هناك من يحكى لابنة الملك حكايات أكثر من اللازم، هذا هو السبب. لم أسمع قط بمجئ خيول من قلعة الجان إلى المراعى. ربما ثيران! ولكن خيول! واسم 'جمال البجع' ذلك هو من نسج خيال ابنة الملك. أم أنك تصدق فعلا أن الحصان قد صرح لها باسمه؟"

نظر أويسين إلى القائد من الجانب. كان وجهه يشبه الجلد، ونظرته عميقة، وظهره منحنيا، ويده التي يضعها على ندبة حمراء في كتفه تتسم بالخشونة، وسيفه مغمدا في الحزام الجلدى المتشقق. كان أويسين يفكر كيف أن هذا القائد لا يمكن أن يخطئ في حكمه على المعركة. ولكن حين يتعلق الأمر بما تقوله فتاة صغيرة.. فعندها لا يسأل محارب مثله. هكذا قرر أويسين أن يفكر وحده في الأمر، خاصة وأن صمته لن يسئ إلى القائد.

بعد أن استأنفا السير مرة أخرى، ومضى وقت طويل، قال القائد: "انظر أويسين! كيف تدفع الريح السحاب ليمر فوقها" ضيق عينيه قليلا وأشار ناحية الجنوب وهو يقول: "إننا نقترب منها" كان يعنى الجبال التي تحمل الآن اسم جبال 'ويكلو'.

منذ تلك اللحظة لم يمض يوم لم تذهب فيه جرينه 'لجمال البجع'. كانت الحقيبة المصنوعة من جلد الخنزير، والتى في حجم القمر تحوى أقراص الخبز. ولم تكن جرينه تسمح لفنجوالا أن تحملها بدلا منها.

أول ما كانت جرينه ترى الحصان وهى في طريق القلعة، كانت تصيح باسمه. وكلما اقتربت من المرعى، كلما صارت خطواتها أوسع. وحين تصل إلى البوابة تنادى 'جمال البجع' طويلا، وتحاول أن تجذبه بشتى الطرق حتى يأتى إلى السور ويشرئب بعنقه. عندئذ تخرج جرينه الخبز من الحقيبة، وتنتظر حتى ينتهى الحصان من الأكل لتدخل مع فنجوالا إلى المرعى.

كانت جرينه تمكث عند حصانها لساعات؛ تتحدث إليه أو تهرول بجانبه. وبلا أدنى خوف ترفع ذراعيها لتبعد الحيوانات الأخرى التي تريد الاقتراب منها ومن 'جمال البجع'. وبينما كانت فنجوالا ترتعد خوفا على جرينه عندما تراها وسط سيقان الخيول القوية، لم تكن جرينه تفكر في أى خطر محدق بها.

هناك مرة واحدة فقط أصيبت فيها بالذعر الشديد لدرجة آلمتها. حدث ذلك عندما انطلقت الخيل فجأة فأوقعتها ثم ركضت بعيدا عنها. حينها وجدتها فنجوالا جالسة القرفصاء على الأرض، واضعة رأسها

على ركبتيها، وضاغطة بذراعيها على رقبتها. فزعت فنجوالا، وارتمت بجانبها، وأخذت تتحسس بحرص شديد ظهر جرينه، ثم جذبت ذراعيها من حول رقبتها وربتت على رأسها وهي تهمس لها: "جرينه! جرينه! جرينه!"

عندها رفعت جرينه وجهها الذي كان شاحبا تماما، ثم نظرت حولها وأدركت أن 'جمال البجع' كان يقف فوقها ليحميها بجسده من حوافر الخيول الأخرى. الآن فقط انتحى جانبا وبدأ يرعى. رفعت فنجوالا جرينه من على الأرض وأخذتها بين ذراعيها. استسلمت لها جرينه لبرهة، لكنها بعد ذلك تركتها وذهبت لحصانها، وألصقت وجهها بساقه الأمامية. هنالك توقف 'جمال البجع' عن الرعي وفي منظر مثير للدهشة التف برقبته إلى الجانب حتى لامست أنفه وجه جرينه التي قالت له: "أنت حصان طيب!"، وبعدها لم تحرك ساكنا.

منذ ذلك الحين صار 'جمال البجع' ينتظر جرينه عند بوابة السور، أو يركض إليها عندما يسمعها تنادي عليه. كان عمال الإصطبل يظنون أن السبب في ذلك يرجع إلى الخبز الذي تدلل به الحصان، لكنهم تحاشوا أن يفصحوا عما كان يدور بخاطرهم. فما كانت جرينه لتصدقه بأي حال من الأحوال. أخطأ العمال كذلك في تقدير مدى مثابرتها على فعل ذلك، فقالوا: "ستأتي لمدة شهر، وبعدها ستملّ من الأمر."

لكن جرينه ظلت تأتي طوال الصيف. وحين أقبل الخريف، لم يمنعها أسوأ طقس أيضا من المجيء. لذا طلبت الملكة من ماتشا أن تخيط لها قمصانا سميكة من الصوف ومعاطف ثقيلة. كذلك طلبت من صانع السروج ثلاثة أزواج من الصنادل الصلبة. من ناحيتها، قامت ماتشا بتعليق عمود لتجفيف الملابس بجانب فتحة التهوية في حجرتها الخاصة، وذلك لتشرف بنفسها على تجفيف ملابس جرينه المبتلة. كان من المفترض أن يكون ذلك ضمن واجبات فنجوالا، لكن لم يكن أحد ليستطيع أن يصرف ماتشا عن شيء تريد القيام به.

في المساء، عندما كانت جرينه تأكل مع الملك والملكة في صالة المعيشة، كانت تتسلق على حجر أبيها وتحكي له عن 'جمال البجع'. كان عندها دائما الجديد والمهم لتقصه عليه.

وفي مساء أحد الأيام، حدث العكس. قال لها الملك: "طلبت لك اليوم شيئا. هل تستطيعين أن تخمني ما هو؟"

لكن جرينه كانت سعيدة جدا بحياتها لدرجة أنه كان عليها التفكير مليا قبل أن تعرف بِمَ يستطيع والدها أن يسعدها؟

سألت: "هل هو تاج ذهبي؟"

أجابها والدها: "خطأ"

"هل هي أجراس ذهبية صغيرة أضعها في ضِفائري؟"

"أيضا خطأ."

سألته جرينه: "هل هو شيء كبير أم صغير؟"

رد الملك: "كبير"

فكرت جرينه ثانية، ثم رَجَتْ أباها أن يخبرها: "قل لي يا أبي!"

"ربما تعرفينه بنفسك عندما أسألك إن كنت تفضلين امتطاء حصانك أم ركوب عربة يجرها؟"

"أريد الاثنين."

"لا يمكن أن تقومي بالاثنين معا يا جرينه. فإما أن يتم ترويض الحصان لكي يجرى أمام العربة بشكل صحيح، أو أن يصبح الحصان حصان ركوب جيد."

"سيتعلم الشيئين يا أبي. فقد قال لي 'جمال البجع' إنه يريد أن يحملني وكذلك يجرني بالعربة. وهذا القول لا يحتمل تفسيرا آخر"

تنهد الملك ثم قال: "حسن. لكن علينا أن نبدأ بشيء من الاثنين، لذلك قمت بـــ..."

بادرته جرينه بسؤالها: "هل أحضرت لي سرجا؟"

هز الملك رأسه نافيا.

"إذن عربة؟"

"نعم، أمرت بصنع عربة لك من الصفصاف المجدول."

قبلت جرينه أباها بحرارة، وقالت له: "لكن 'جمال البجع' سيحتاج أيضا إلى كسوة!"

"سأطلب له غدا واحدة."

"إذن لا تنسَ أيضا السرج يا أبي."

عندما ذهبت جرينه للنوم، طلبت الملكة أن يتم وضع الحصان من الآن فصاعدا في الإصطبل.

سألها الملك كورماك: "الآن؟ هذا ليس في صالح الحصان. فهو بذلك لن يخشوشن. الخيول الأخرى تبقى بالخارج حتى يبدأ نزول الثلج"

ردت عليه آيتشه: "أعرف، لكن ذلك في صالح جرينه. فأنا لا يفارقني الخوف من أن تمرض جرينه. عندما كانت تذهب إلى المرعى أثناء المطر والضباب، كانت ساقاها تتجمدان من البرد. عليك أن تحس بنفسك في مرة ببرودة جسدها كله. أنا وماتشا نسرع إليها بالمناشف الساخنة عندما تعود."

كان الملك ينظر إلى الملكة وهي تتحدث.

سألها مبتسما: "وإن لم تدعيها تذهب؟"

سرت رعشة خفيفة حول فم الملكة التي ردت عليه بقولها: "وإذا لم تطلب لها أنت السرج؟"

ضحك الاثنان.

كانت فكرة صنع عربة لجرينه فكرة صائبة. فلم يكد العمال ينتهون من تجهيز القاعدة الخشبية والعجلات، وصناعة القفص من الصفصاف المجدول، ثم خياطة الفراء – أصرت ماتشا على أن يكون فراء خروف – كذلك لم يكد الحصان يتعود على الكسوة التي وضعت فوقه، وعلى اللجام، حتى ركبت جرينه العربة مع أحد السائقين وأخذت تدور بها داخل القلعة. سارا بالعربة من الساحة الأمامية لصالة المعيشة إلى صالة الاحتفالات، ودارا عدة دورات، ثم تركا 'جمال البجع' يأخذهما إلى نزل الضيوف، وبعدها إلى الطريق الذي يصل بين الإصطبلات ومخازن العربات. استكملا رحلتهما إلى ورشة الحدادة، وورشة السروج، وورشة العربات الخشبية، ثم إلى المطبخ، وغرف التخزين، وحجرة التدخين. لم يتركا مكانا يمكن أن تعبر فيه العربة إلا ومرا به.

أوكل الملك ابنته إلى سائق حذر ومتعقل، يميز حاجبيه وذقنه التلبد والشيبة. في المرات الأولى لركوبهما ودورانهما معًا كانت جرينه تجلس إلى جانبه وتركز بصرها على 'جمال البجع'. لكن بعد فترة قليلة أرادت أن تجلس بين ساقيه وتمسك بنفسها باللجام. وضعه السائق في يديها ثم وضع يديه فوقها. هكذا أحست جرينه بدقة متى يقوم السائق بجذب اللجام ومتى يرخيه، وكذلك متى يجذب أحد الحبال فقط لينحرف يمينا أو يسارا.

جاء أجمل يوم عاشته جرينه في منتصف الشتاء. فمثلما كان السائق يفعل في كل يوم، وضع جرينه في هذا اليوم في الكيس المصنوع من فراء الخراف والذي كان يغطي جسدها حتى ذراعيها، ثم رفعها فوق العربة. جلست جرينه في وضع مستقيم، وانتظرت أن يصعد الرجل العجوز إلى العربة. لكنه دار مرة أخرى حول العربة والحصان ليتأكد من أن 'جمال البجع' مربوط بالعربة بشكل صحيح. بعدها توقف بجانب العربة وجذب جرينه من ضفيرتها بخفة قائلا لها:

"ما رأيك أن تجربي الدوران عدة مرات حول الساحة وحدك؟ ولكن بتعقل!"

من فرط سعادتها أحست بحرارة جعلتها تخرج جزءا من جسدها من داخل كيس الفراء الذي كان يحميها من البرد.

سألت السائق: "أمتأكد أنت أنك لن تأتي معي؟ هل تسمح لي.. ستتركني وحدي تماما.. مع 'جمال البجع'.. بالعربة؟ لكنك في هذه الحالة لن تناديني أيضا!"

"لا، بعد أن تتوقفي عندي سأقول لك كيف كنت تقودين. لك ثلاث دورات يا جرينه، هيا انطلقي!"

أومأت جرينه، بعدها أخذت الزمام وضربت به برفق على ظهر الحصان وهي تصيح: "هيا يا 'جمال البجع'!"

قامت جرينه بثلاث دورات في خطى هادئة وثابتة. في كل مرة كانت تمر فيها بالسائق لم تكن تنظر إليه. وعندما توقفت، كانت متوهجة تماما.

قال لها السائق العجوز: "لو لم يكن الحصان والعربة ملكك لرجوت الملك أن يهديهما إليك. فقد قدت العربة بمهارة كبيرة."

أشرق وجه جرينه. قالت للسائق: "والآن أريد أن أجرب الجري بالعربة."

"كنت أعرف أنك ستطلبين ذلك. لكني في هذه الحالة سأصعد معك إلى العربة وأجلس خلفك."

قالت جرينه: "وأنا سأتصرف وكأنك لست جالسا خلفي."

انحبست أنفاس السائق عندما شاهد كيف انتقلت جرينه بحصانها من المشي إلى العدو، وانبهر بشدة بإدراكها لكيفية الحفاظ على الإيقاع لدرجة أنه لم يلحظ كيف كانت تحدث نفسها بشكل مستمر. وفي الجزء الأخير أدارت رأسها جانبا وصاحت: "“جمال البجع يريد أن يستمر في العدو!" وبدون أن تنتظر إجابة قامت بثلاث دورات أخرى حول الساحة. بعدها تركت السائق ينزلها من العربة وأسرعت إلى النزل المخصص للسيدات.

ارتمت في أحضان أمها أولًا، وقالت لها: "لقد قدت العربة وحدي يا أمي، وحدي! ببطء وبسرعة ووحدي تماما!" بعد والدتها جاء دور فنجوالا وتلتها ماتشا. ثم سرعان ما جرت خارج المنزل إلى بهو القلعة، حيث كان الملك في استقبال بعض الضيوف. كانوا تجارا من الضاحية الكبيرة التي تقع على الساحل الشرقي، حيث ترسو السفن القادمة من الجنوب. أتوا يعرضون أقمشة من الحرير، وكذلك نبيذا وتوابل.

في البداية سمع الحاضرون جرينه بالخارج وهي تتشاجر مع حارس الباب. بعدها فتح الباب، واندهشوا عندما رأوا جرينه تتسلل من بين ساقي الحارس، ثم تندفع إلى داخل البهو.

صاحت جرينه: "أبي! لقد قدت 'جمال البجع' وحدي! في البداية مشيت به، وبعد ذلك جريت. تصور يا أبي، وحدي تماما! هل أنت سعيد بذلك؟"

رد الملك كورماك: "أنا في غاية السعادة بك يا جرينه. ولكن عديني بأن تجعلي حارس الباب يدخل لي أولا قبل أن تدخلي أنت، وذلك عندما أكون جالسا مع ضيوف"

"أعدك بذلك. ولكن عندما يكون الأمر مهمًا جدا مثل اليوم، فسأدخل دائما فورا وبنفسي"

كان هؤلاء التجار هم من قاموا بنقل الأنباء عن ابنة الملك كورماك العنيدة إلى الضاحية الواقعة على الساحل الشرقي والتي أصبحت فيما بعد مدينة "دبلن".

بعد ظهر هذا اليوم، أصاب ماتشا ألم شديد في ظهرها. أرادت أن تقوم من جلستها أمام المغزل، لكنها صرخت وسقطت ثانية على المقعد.

كانت تتأوه وهي تحكي: "كنت أتوقع ذلك. لم أشعر بالارتياح لتلك المرأة التي كانت تجلس القرفصاء فوق عربة التجار. لا بد أنها ساحرة شريرة، أنا مصرة على ذلك. ظللت متنبهة جدا ألّا أجعلها تنظر إلى ظهري، وها هو يحدث الآن. لقد نفخت عليه، وليقل أي شخص ما يشاء"

ساعدت الملكة وفنجوالا ماتشا في أن تستلقي على الفراش، ثم قامتا بتدليك ظهرها بدهن الخنزير وتغطيتها. هكذا أمضت فنجوالا المساء بصحبة الملكة. أثناء ذلك تسللت جرينه من فراشها الوثير وتحسست طريقها إلى غرفة ماتشا، وإلى فراشها.

سألتها: "هل تعانين آلاما شديدة؟"

"عندما أستلقي في سكون يصبح الألم محتملا."

"ترى هل سيستمر الألم طويلا؟"

"فى حالة إصابة الظهر لا يمكن أبدا التكهن بأى شيء"

"لكن عندما تشفين يا ماتشا سأقود بك العربة داخل القلعة، وسآخذك إلى حيث تريدين."

ردت عليها ماتشا وهي تتأوه بصوت منخفض: "أنت ابنتنا الطيبة"، ثم سألتها: "ألم يعد يستهويك الذهاب إلى البجع؟"

ضحكت جرينه، وقالت لها: "البجع مهاجر الآن في الشتاء يا ماتشا. لكن عندما يعود في الربيع، سأحضر له خبزا مرة أخرى. لا بد أن نعامله برفق كما تقول آلا، لأن." توقفت جرينه فجأة عن الكلام. كانت تريد أن تقول، 'لأن لا أحد يعلم إن كان أولاد الملك لير

المسحورون من بين هذا البجع'. لكن بدا لها فجأة وكأن فنجوالا تقف أمامها في الظلام وتضع إصبعها على شفتيها حتى لا تقول ذلك.

حثتها ماتشا على استكمال حديثها: "لأن ماذا؟"

ردت جرينه: "لا بد من معاملته برفق لأنه جميل جدا."

وفي إحدى الليالي، والربيع على الأعتاب، استيقظت جرينه من نوم متقطع، واستفاقت سريعا، مما جعلها عاجزة عن تذكر ما كانت تحلم به. لكنها حاولت أن تغمض عينيها وتسترجع حلمها.

حينئذ سمعت أصوات البجع حتى ظنت أنه عاد. استمرت في الإنصات لتسمعه وهو ينادي على بعضه البعض – كم هو واضح هذا النداء – ويا لرقة حديثه مع بعضه البعض: "فيشه–فيشه–في–في–فيشه–فيشه–فو–فو".

أحست جرينه بأن الصوت قريب جدا، وكأن البجع يقف أمام الباب. أرادت أن تجلس، لكنها لم تستطع، بالرغم من أنها لم تكن ممسوكة أو مقيدة.

فتحت جرينه عينيها. أرادت أن تنادي فنجوالا. لكنها رأت فجأة شريطا مضيئا داخل الحجرة يأتي من ناحية الباب. كان الباب مفتوحا على مصراعيه، مثلما يكون دائما حينما يفتح من تلقاء نفسه.

من جديد أرادت جرينه أن تنادي. هنالك سمعت صوت فنجوالا في الخارج وهي تقول: "أهلا بكم يا أعزائي، يا من عدتم. احكوا لي عن رحلتكم، احكوا لي عن بيتكم، احكوا لي عن أحبابكم، احكوا لي عن أبيكم. احكوا لي عن ‘بروف نا بوينه!"

بدأت جرينه ترتعش. لقد رأت فنجوالا وهي تتحدث تماما مثل البجع، بكل هدوء ورقة. ثم عادت لتسمعها وهي تقول: "أخبروني إن كان مسموحا لي أن أبقى في عالم الإنسان"

استجمعت جرينه كل قوتها وصرخت: "آلا!"، وتَلَا ذلك صرخة ثانية: "آلا!"

أسرعت فنجوالا إلى الداخل، ومالت على جرينه التي قالت لها: "البجع، هل سمعته؟"

"سمعته، وقمت من فراشي؛ لأني أردت رؤيته."

"هل كنت تتكلمين معه؟"

لم تجب فنجوالا.

جذبتها جرينه إليها حتى صارت قريبة جدا منها، وتستطيع أن تنظر في وجهها، ثم قالت لها: "أريد أن أتعلم ذلك أيضا يا آلا"

عيـــد الساموين

فى تارا كان يتم التحضير للساموين، عيد تحول شمس الشتاء الذي يوافق الأول من شهر نوفمبر. كان الساموين أهم عيد في العام. لم يكن هناك شخص يهتم بأناقته يُفوِّت على نفسه فرصة الذهاب إلى قلعة الملك. كان كورماك قد أمر ببناء أربع دور جديدة لضيوفه لتضاف إلى الدور القديمة التي تم تجديدها. أما عن صالة الاحتفالات الضخمة، فقد تم الاعتناء بها على أكمل وجه استعدادا لاستقبال المدعوين.

كان ملوك إرين الأربعة: ملك "مونستر"، ملك "لاينستر"، ملك "أولستر"، وملك "كوناّخت"، قد أعلنوا عن نيتهم حضور الحفل. أحضر ملك مونستر معه ابن الملك المعظم، أخا جرينه ذا الستة عشر ربيعا الذي تربى في بلاط آخر طبقا للأعراف السائدة في ذلك الوقت. وقد كانت أمنية الملكة أن ينشأ ابنها في بلاط مونستر الذي نشأت هي نفسها فيه.

الآن أتم آتان ماك كورماك سن الرشد، وعاد إلى بلاط والده. لم تعرف جرينه ما إذا كان عليها أن تسعد لمجيء أخيها أم لا.

فمعلوماتها عنه لم تكن تتعدى حقيقة أنه يكبرها بستة أعوام. ترى كيف شكله؟ هل شعره أشقر مثل شعر أمهما أم داكن مثل شعر أبيهما؟ ترى كيف يتصرف؟ لم تكن جرينه قد فكرت بعد أبدا في أي صبي ولا في أي فتى على الإطلاق. فمن كان منهم موجودا أمامها في بلاط الملك كان يعمل إما مع الخيل في الإصطبل، أو مع الأبقار، أو في المطبخ مع الطباخين، أو في الخدمة على مأدبة الطعام، أو في ورشة الحدادة، أو عند صانع العربات، أو صانع السروج.

مرت جرينه بفكرها على الفتية الذين قابلتهم في القلعة أثناء ركوبها 'جمال البجع' في المراعي، فأدركت فجأة أن عددهم لم يكن قليلا، لكنها هي التي تلحظ ذلك أبدا. هناك غلام واحد فقط كانت تفكر به أحيانا: أويسين، ابن القائد فين، الذي أهداها 'جمال البجع'. مرت الآن خمس سنوات على ذلك، حتى أن جرينه لم تعد قادرة على تذكر شكله.

في كل مرة كانت تركب فيها جرينه حصانها، كانت تبتعد أكثر عن القلعة لتهرب من الصخب والضجيج اللذين سادا جميع أركان القلعة منذ أشهر. ومؤخرا صار يسمع صوت العربات التي تدخل القلعة منذ شروق الشمس وحتى حلول الظلام: كانت تجرها ثيران وخيول، وتحمل فوقها خنازير تصرصر، وخرافا وعجولا تنعق،

وكذلك زكائب حبوب ودقيق مكدسة فوق بعضها البعض، وبراميل نبيذ تتأرجح يمينا ويسارا. كل من كان يقضي في العادة بعض الوقت مع جرينه صار يجري هنا وهناك بوجه تعلوه الحمرة. ولم تستثن من هذا الانشغال حتى الملكة وماتشا. فقد كان منوطا بهما تجهيز البيت الذي بُني مؤخرا من أجل آتان.

كان حصان جرينه يمشي في سكون أثناء ركوبها له، مما كان يسمح لها بالتفكير بهدوء. كانت فنجوالا هي الوحيدة التي بقيت على توازنها وتعقلها. فبالرغم من انشغالها الكبير بتحضير ملابس العيد لجرينه، إلا أنها – بمجرد إقبال جرينه عليها – كانت تترك من يديها كل ما كانت تقوم به وتجلس إلى جانبها لتدفئ لها ذراعيها وساقيها عن طريق التدليك، ثم تلبسها قميصا جديدا، وتمشط لها شعرها بعناية. بعدها كانت تحضر علبة الحلي وتنتظر بسعة صدر حتى تنتهي جرينه من اختيار المشبك الذي تود وضعه في شعرها. وحتى الآن، في تلك الأيام القليلة المتبقية قبل الساموين، والتي يعد الجميع فيها يلتزم بأي لياقة في الحديث، كانت فنجوالا تتحلى بالصبر، وتبقى ساكنة عندما تقول لها جرينه: "الآن يا آلا، سوف أصفف شعرك" أو عندما تقول لها: "هل تغنين لي قليلا الآن يا آلا؟"

عندما كان عقل جرينه يأخذها إلى التفكير بماتشا، كانت تهز كتفيها وتوجه حديثها إلى حصانها: "من المؤسف أنك لا تستطيع أن تسمعها يا 'جمال البجع'"، ثم تنحني إلى الأمام وتربت بيدها على عرفه، وهي تقول: "عندما يأتي الحديث عن السباق، تقول إنه جنون، بل قمة الجنون. في حين أتوق أنا شوقًا له، تماما مثلك" – كان جمال البجع يتراقص أثناء حديث جرينه – "نعم، أعلم. تسأل إن كنا فعلا سنفوز؟ نحن لا نعلم مدى قدرة الخيول الأخرى. هيا، لنجرِ في الحلبة مرة أخرى"

عادت جرينه بالحصان إلى مكان السباق. كانت تفكر بأنه بقيت ثلاث ليال، وبعدها يحين السباق. ثلاث ليال باقية! ثلاث ليال باقية!

كانت جرينه تعرف تماما. لم تفكر باستمرار في نفس الشيء. أرادت أن تجبر نفسها على ألّا تفكر فيما حدث في الليلة السابقة على الساموين: احتفال الأضحية الذي يقام من أجل الملوك العظام الذين ماتوا. لكنها لم تنجح في أن توقف أفكارها.

كانت المرة الأولى التي تم فيها اصطحابها إلى هناك في العام الذي تلا عيد ميلادها السابع. عندما انطلقوا بالعربة كان لا يزال هناك ضوء خافت يشع في السماء من جهتها الغربية. حركت ريح

خفيفة ورق أشجار حول عجلات العربة، وغطى الضباب نهر البوينه. كما انبعثت رائحة عشبٍ عفن. كانت جرينه تجلس في العربة بين أمها وفنجوالا، بينما سارت عربة الملك أمامهما، وعربات الضيوف خلفهما.

قبل أن يبلغوا المدافن كان الظلام قد حل. بالرغم من ذلك استطاعت جرينه أن تحدد من بعيد ملامح النصب التذكارى المرتفع الذي كان يعتلي الربوة وتحيط به اللوحات الخاصة بالقبور الحجرية المتعددة الموجودة هناك. برزت تلك اللوحات بلونها الأسود وفى خلفيتها السماء الداكنة. وكلما اقتربوا منها، كانت تبدو أعلى وأكبر.

كان الكاهن في انتظارهم هناك. لم تستطع جرينه تذكر عدد المرات التي قام فيها أثناء الاحتفال بالدوران حول النصب التذكاري، وكم مرة توقف فيها أمام القبور، وكم مرة دعا كروم، الإله العظيم، بأن يمنح البيوت والماشية والمراعى والحقول خصوبة، وكم مرة استعاد ذكرى الملوك العظام المتوفين. لكن ذاكرتها كانت حاضرة بشكل أقوى فيما يتعلق بالطريقة التي أشعل بها الكاهن نار الأضحية، والتي لمع بها المعطف النحاسى، وقناع الوجه الذهبي، والتاج – المزين بهما النصب التذكاري – في الضوء المنبعث من النار. فيما بعد أحضر العمال الأضحيات التي كانت عبارة عن خمسة عجول

بيضاء وخمسة أمهار بيضاء. تذكرت جرينه ذلك بكل دقة، وتذكرت أيضا كل حركة يد قام بها الكاهن. فهي لم تُدر رأسها أو تغمض عينيها. تحملت المنظر، بالرغم من أنها كانت ترتعش من الخوف.

منذ ذلك الحين لم تعد تذهب معهم إلى احتفال الأضحية. وقد فرضت ذلك على والدها رغم اعتراض الكاهن. لكنها كانت على يقين من أنّ في كل عام سيتم التضحية بخمسة عجول بيضاء وخمسة أمهار بيضاء..

تركت جرينه 'جمال البجع' يجري مرتين حول حلبة السباق، ثم سلكت طريق العودة إلى البيت. فجأة لمحت بعيدا ثلاث عربات تقترب من القلعة. كانت تسير خلف بعضها البعض مباشرة. كان يمكن لأي ناظر من بعيد أن يوقن أنها لم تكن عربات فلاحين جاءوا ليحضروا الضريبة إلى القلعة، كما أن من جاءوا لم يكونوا تجارا يريدون توريد بضاعة طلبت منهم. كانت كل من تلك العربات الكبيرة، وفي ذات الوقت خفيفة، والملونة بألوان متعددة، تجر بزوج من الخيل موحد اللون. تقدم الركبَ حصانان أسودان، يتبعهما اثنان أبيضان، وفي المؤخرة أتى حصانان لونهما بنيّ مثل لون الثعلب. سمعت جرينه نداءات السائقين الذين كانوا يقفون في العربات ويحثون الخيول على الجري. لا بد أنهم الضيوف الأوائل.

أخذت جرينه تفكر من يمكن أن يكونوا وهي سعيدة بكل فكرة جديدة تخطر على بالها. ربما يكون ملك لاينستر؛ لأن العربات آتية من الجنوب؟ يمكن أن يكون أيضا ملك مونستر؛ لأنه هو أيضا لا بد أن يسلك ذلك الطريق في آخر جزء من رحلته إلى تارا. وإذا كان هو بالفعل ملك مونستر، فلا بد وأن يكون أخوها آتان جالسا في إحدى العربات الثلاث.

أرخت جرينه اللجام، وتحدثت إلى 'جمال البجع' قائلة: "سوف ننتظر يا 'جمال البجع' حتى يقتربوا منا. تستطيع أن ترعى" ولكن بعد برهة غيرت جرينه فكرها. لا، هي تريد أن تقابل آتان في القلعة أولًا، ولا تريد أن تقف هنا على جانب الطريق أثناء مروره من أمامها. جرت جرينه بالحصان بسرعة: "هيا يا 'جمال البجع، هيا! لا بد أن نكون في المنزل قبلهم."

لم يمضِ وقت طويل حتى لاحظت أن العربات تتنافس معها على أسبقية الوصول إلى بوابة القلعة. كانت جرينه تسمع صياح السائقين يعلو، بينما كانت عجلات العربات تطقطق من خلفها طقطقة تشبه صوت عاصفة ثلجية.

أرخت جرينة الزمام أكثر وصاحت: "أسرع يا 'جمال البجع، أسرع!" لكنها سمعت من خلفها صوت يقول: "هو-هوهو! أيها السهام! طيروا يا طيور النورس، هو-هوهو!"

أخذت جرينه تفكر بأنها انتظرت أطول من اللازم، وأنها تأخرت كثيرا في الانطلاق بالحصان! عندئذ طرأت لها فكرة: سوف أجري بالحصان في وسط الطريق حتى أصل إلى القلعة. بذلك يكون لزاما عليهم أن يسيروا خلفي، ولن يخاطروا بأن يسبقوني.

كانت فكرة جرينه صائبة – فقد ظلت العربات خلفها. أوقفت جرينه 'جمال البجع' أمام البوابة، ثم استدارت ناحية العربة الأولى، ولوحت بيدها بينما ارتسمت ضحكة واسعة على وجهها. صاح أحد الرجال الموجودين داخل العربة قائلا: "فزتِ بشكلٍ غير سيئ!".

ردت عليه جرينه قائلة: "أستطيع أيضا أن أفوز بشكل أفضل"

"لكنكِ نجحت فقط بالحيلة!"

"وكنتُ أستطيع أيضا أن أنجح بدون حيلة لو أردت ذلك. 'فجمال البجع' لم يخذلني قط."

"'جمال البجع'؟" سأل الرجل في العربة هذا السؤال، وهو يشير إلى الحصان. "إذا كان هذا هو جمال البجع، فلا بد أن تكونى أنت ابنة الملك كورماك"

"نعم، أنا جرينه."

"وحصانك، كاد أن يكون لي."

عندئذ سألته جرينه: "لك أنت؟ أنت؟ لا، أنا لا أصدق ذلك!"

ضربت جرينه كفيها ببعضهما البعض، وهي تضحك. "لا يمكن أن تكون أويسين، فأنت أكبر بكثير."

"أنا فين ماك كومهال."

"آه، أنت فين، والد أويسين. أستطيع أن أصدق ذلك" تركت جرينه 'جمال البجع' يسير إلى جانب العربة. "لو كنتُ أعلم هذا! لما أجهدتُ 'جمال البجع' بهذا الشكل. فقد ظننتُ أنك ملك مونستر الذي سيحضر أخي معه. ولم أرد أن أدع آتان يمر بعربته من أمامي"

في الإصطبل، كان رئيس الإصطبل في انتظار جرينه. صاح فيها: "لقد فقدتِ عقلك! قبل ثلاثة أيام من السباق تمتطين الحصان في جميع أنحاء المنطقة، وبتلك السرعة الكبيرة!" كان يمسك في يده بممسحة من القش الملفوف بدأ يمسح بها 'جمال البجع'. "قلت لكِ أنك يجب أن تجعليه يتحرك، ولكن ماذا فعلت أنت؟"

اعترفت جرينه بذلك: "كان خطأ. ولكنني لم أستطع أن أقاوم" أمسكت هي أيضا بممسحة من القش وبدأت تمسح الحصان من الجانب الآخر.

زاد غضب رئيس الإصطبل. "منذ شهور ونحن نحافظ على الحصان مثل البيضة النيئة؛ لأنك صممتِ على خوض السباق، ثم تقولين إنك لم تستطيعي المقاومة! وأنا من المفترض أن أقبل ذلك."

كانت الإجابة التي تلقاها من جرينه هي: "أنت أيضا لا تقبل أن أخسر، وإلا لا تلومني في تلك الحالة. ولكن ما حدث لا يستدعي منك أن تتحدث إليّ كما تتحدث إلى عامل صغير في الإصطبل"

"فلتفهمينيى الآن جيدا يا ابنة الملك. لقد اتفقنا على أن نكون متحدين معا مثلَ رفيقيْ معركة قديمين."

تسللتْ جرينه من تحت بطن 'جمال البجع' لتصل إلى الناحية التي يقف فيها رئيس الإصطبل، ثم وجهت له كلماتها في رجاء: "إذن توقف عن توجيه اللوم لي ودعنا نفكر كيف نصلح ما حدث"

لامس رئيس الإصطبل وجه جرينه بالممسحة مداعبا إياها، ثم قال: "لا فائدة من التدريب اليوم قبل المغيب، أنت تدركين ذلك. دعينا إذن نفكر فيما يمكننا القيام به غدا."

جلسا على المعلف، على اليمين واليسار من رأس 'جمال البجع'. تبادلا المشورة أثناء مشاهدتهما وإنصاتهما إلى الحصان الذي انغمست رأسه وسط الحبوب.

ظلت جرينه مستلقية في الفراش دون أن تُغمض عينيها. كانت تلك هي الليلة التي تسبق الساموين، وكانت في تلك المرة ليلة سوداء أخذ البوم الصغير يصيح فيها من فوق أسوار القلعة، بينما توارت الكلاب في أكواخها. كذلك كان الضباب يغطى المراعي.

اقشعرت جرينه من البرد، وأرجعت ذلك إلى الجذوة التي خبت. طالما كانت النار مشتعلة، كانت لا تبعث الدفء فقط، بل كانت أيضا تطقطق كثيرا وتبعث رائحة طيبة جدا عندما يتطاير منها الشرر.

لم تشعر جرينه بالوحدة مطلقا، طالما كانت النار مشتعلة. لكن في المساء الذي سبق الساموين أُطفئت جميع النيران في القلعة، وكذلك جميع النيران في المنازل. وقد كان هذا هو الوقت الذي تتمتع فيه الأرواح الشريرة بسلطة على البشر.

أرهفت جرينه السمع. حتى ذلك الوقت لم تصل عربة من بعيد. ساد الصمت القلعة وكأنها قبر. لا، يجب ألّا تفكر في هذا الأمر ثانية. كانت تسمع صوت أنفاس آلا الموجودة معها، وكذلك صوت أنفاسها هي. أخذت جرينه نفسا عميقا لتسمع نفسها بوضوح.

سألتها فنجوالا: "ماذا بك؟"

انتفضت جرينه. فقد كانت ضائعة تماما في السكون المحيط بها: "أنت أيضا لا تستطيعين النوم يا آلا؟"

"أظل دائما مستيقظة في هذه الليلة."

"هل تسمعين شيئا يا آلا؟ أم ترين شيئا؟"

"أسمع وأرى الكثير. لكنك تستطيعين النوم في هدوء يا جرينه، فأنا هنا."

"ماذا تفعلين يا آلا؟"

"أنا أنظر إلى الباب. لن يعبر عتبتنا شيء. يمكنك فعلا أن تنامي يا جرينه."

"لما تتحدثين هكذا يا آلا. تعلمين أنني لا أستطيع. فمشاهد احتفال الأضحية لا تفارق عيني أبدا في تلك الليلة، إنها لا تزال واضحة بشدة وكأنني أقف هناك مرة أخرى. دم كثير جدا يا آلا، كثير جدا."

كان ما يدور بخاطر فنجوالا في هذه اللحظة هو: 'سوف ترى عيناك يا جرينه أشياء أخرى كثيرة سيئة. من الخير أنك لا تعلمين ذلك.

فسرت جرينه صمت فنجوالا على أنه موافقة. قالت: "أنا سعيدة لأن الفرس 'جمال البجع' لم ترزق بمهرٍ أبدا حتى الآن. كلما

أفكر بأنه كان من الممكن أن يأخذوه منها ويذهبوا به إلى احتفال الأضحية! كنت حينئذٍ يا آلا سأحضر سيفا من غرفة الأسلحة."

"ولكن يا جرينه!"

"أنت الآن تظنين بأن السيف سيكون ثقيلا جدا عليّ. لا يا آلا. عندما يرغب المرء في شيء، تأتيه القوة التي تعينه عليه. يكون الأمر حينئذ مثل النار بداخل الإنسان" استمرت جرينه في الحديث: "تعرفين يا آلا، فكرت كثيرا لِمَ لَمْ تلد الفرس 'جمال البجع' مهرا حتى الآن. حتى في الإصطبل يتحدثون عن ذلك، وأنا أراه بنفسي. مرة واحدة في السنة، عندما يحين الوقت لذلك، يتم اصطحاب الأفراس إلى الأحصنة" توقفت جرينه عن الحديث برهة، ثم استطردت قائلة: "دائما ما يبدو لي غريبا أنها تستسلم عندما تعتلي الأحصنة ظهورها. فلا فرسَ تعرف الحصان ولا واحدة اختارته لنفسها، ومع ذلك تظل واقفة. وعندما ينتهي الأمر تجري بعيدا ولا تدير رأسها نحوه ولو مرة واحدة. وبعد اثني عشر شهرا تلد مهرا، فتلعقه وتحبه ولا تتركه يغيب عن عينيها. قال رئيس الإصطبل إن الأمور تسير مع الخيول على هذا النحو. ربما يكون على حق، ولكن لماذا يختلف الأمر بالنسبة 'لجمال البجع'؟ ما رأيك يا آلا؟"

ترددت فنجوالا في الإجابة. كانت تسأل نفسها: كيف ستستوعب جرينه الأمر. هل ستبقى قريبة مني؟ أم أن الحقيقة ستحول بيننا من الآن فصاعدا؟ يا للأرواح الشريرة! لم نكن لنصل إلى تلك الساعة إلا في الليلة التي تسبق الساموين.

تحدثت فنجوالا إلى جرينه قائلة: "لن تلد الفرس 'جمال البجع' مهرا أبدا؛ لأنها لا تنتمي إلى عالمك الأرضي يا جرينه. تعلمين أن هناك أيضا العالم غير الأرضي."

قاطعتها جرينه: "عالم ما تحت الأرض أيضًا."

""مملكة الجان الموجودة تحت الأرض، هي مجرد جزء من العالم غير الأرضي. كل المخلوقات التي تأتي من هناك وتتخذ شكلا مرئيا لا يمكن أبدا أن تموت. لكنها تدفع ثمنا مقابل خلودها – وهو أنها لا تحس بأجسادها. فهي تحب، لكنها لا تعرف الرغبة في أن يبادلها من تحب نفس المشاعر. يكفيها السعادة التي تمنحها للبشر الذين تعيش معهم. و'جمال البجع' آت من قلعة الجان 'بروف نا بوينه'. هل نسيت ذلك؟"

في البداية، ظلت جرينه مستلقية في صمت. لكن بعدها اتخذت وضع الجلوس، وسألت فنجوالا: "فقط 'جمال البجع' يا آلا؟"

"لا، ليس هو فقط."

تلمستْ جرينه طريقها إلى فنجوالا ببطن قدميها، وقالت لها: "الآن عرفتُ لماذا تضيء عيناك في الظلام ولم تستطيعين التحدث إلى البجع."

لفت جرينه ذراعيها حول فنجوالا وهي تسألها: "هل من الصعب الحياة بهذا الشكل؟"

"فقط بمقياس عالمك يا جرينه."

كانتا لا تزالان تجلسان جنبا إلى جنب، عندما سمعتا العربات تدخل إلى القلعة. لم يمر وقت طويل بعدها حتى فتحت الملكة الباب ودخلت حاملة الشعلة كي توقد النار مرة أخرى. كانت الشعلة عبارة عن ثلاثة أفرع من الخشب.

نامت جرينه نوما عميقا حتى ساعات الصباح. عندما طرق آتان باب الغرفة، كانت فنجوالا ما زالت تمشط لها شعرها، بينما كانت ماتشا تضع قطع الخبز المدهون بالزبد في فمها.

فتحت ماتشا الباب.

قال آتان: "كنت أود أن أصطحب أختي."

صاحت جرينه: "ادخل! أنا على وشك الانتهاء. هل ترغب في قطعة؟" قدمت له الطبق البرونزي الموضوع عليه الخبز.

أقبل آتان على الخبز بشهية، ثم جلس في الجهة المقابلة لجرينه.

"هل تريد أيضا كوبا من الحليب؟"

"لا، لقد تناولت الطعام."

سألته جرينه: "مع مَن؟"

"مع ملك مونستر. أريد أن ألتزم بذلك طالما بقي هنا. فالملك المعظم – أعني والدنا قد سمح لي بذلك."

أومأت جرينه وعلامات السعادة على وجهها. "والدنا طيب يا آتان. سرعان ما ستدرك ذلك"

"هل تعتبرينه طيبا لأنه دائما ما يستسلم لرغبتك؟"

مدت جرينه يدها عبر كتفها لتقبض على معصم فنجوالا وتمسك به جيدا. "هل تتحدث عن سباق العربات؟"

"نعم. لم يصدق أحد من السائقين الآخرين أنك ستشتركين."

سألته جرينه: "ولماذا لم يصدق أحد؟ هل لأني فتاة؟"

"هذا أيضا، ولكن في المقام الأول لأنكِ لم تتعدي الأعوام العشرة وتريدين أن تنافسي الرجال. كلهم يخشون ألا يصبح ذلك سباقا حقيقيا. فكل واحد منهم سوف يقوم بمراعاة ابنة الملك المعظم."

"قفزت جرينه قائلة: "ما أذكى هؤلاء الرجال! حتى الآن لم يرني أحد منهم وأنا أقود ومع ذلك فكلهم 'يخشون'! بل يتحدثون عن موافقة أبي، أليس كذلك؟ آه يا آتان، إنهم سوف يذهلون، تستطيع أن تخبرهم ذلك. وإذا كنت لا تتصدى لهم بمجرد تطرق واحد منهم بكلمة سيئة عن قرار الملك المعظم، فقد كان من الأفضل أن تبقى في مونستر."

علت الحمرة وجه آتان، وبدت حتى من تحت الشعر الذي كان يغطي ذقنه. قال: "حان وقت الذهاب."

"نعم. – ضعي مشبك البجع في شعرى يا آلا، فهو أفضل ما يمسك شعري" كان المشبك من الذهب، وكان على هيئة بجعة طائرة.

تابعت ماتشا الاثنين بنظرها، ثم قالت في سخرية: "شيء مضحك!"

عاشت جرينه كل ما حدث أثناء النهار، وكأنه حلم رأته وهي تحت أثر حمى. رأت صخرة التتويج أمام قاعة الاحتفالات يغطيها

ضباب أحمر يظهر من داخله رجال. كما رأت سيوفا تطير في الهواء وسمعت صليلها وهي في مواجهة بعضها البعض. كذلك رأت الرجال يخترقون الضباب الأحمر، وينحنون، ثم ينتصبون واقفين مرة أخرى. وسمعت جرينه صوتًا كأنه آتٍ من بعيد جدا، ثم أصبح فجأة قريبا جدا. كان صوت نافخي الأبواق والصفارات الذين يصاحبون بعزفهم: رقصة السيوف حول صخرة التتويج في القلعة، والتى تعني مبايعة الملك المعظم!

فزعت جرينه فجأة عندما صاح الجميع: "رجال فين قادمون! الآن سيرقص رجال فين! يحيا فين ماك كومهال! يحيا رجال فين!" عندئذٍ أدركت جرينه كم عدد البشر الذين اكتظت بهم القلعة. لم يكن من الممكن أن يسقط شيء على الأرض من بينهم، فقد وقفوا بكثافة إلى جانب بعضهم البعض: رجالا ونساء، صغارا وكبارا، الأحرار والفلاحون، العمال والتجار. كان يمكن تمييزهم من خلال قماش المعاطف التي يرتدونها ، ومن خلال عرض إبزيم أحزمتهم، وأيضا من خلال حجم المشبك الذي يمسك معاطفهم. وقف بينهم محاربون قدامى بسيوفهم المستهلكة، كما كان هناك متسولون يتسكعون بثياب بالية وأقدام حافية. كل هؤلاء جاءوا من كل الاتجاهات ليحتفلوا بالساموين في تارا كضيوف على الملك المعظم لمدة ثلاثة أيام.

لم تكن جرينه تعرف كيف وصلت إلى مكان السباق أمام القلعة. فقد استعادت انتباهها فقط حينما لمعت الرماح في ضوء الشمس. كان واحد تلو الآخر يعبر من أمامها في منافسة رماة الرماح. كان لا بد عليها أن تنتبه من أين تأتي الرماح وإلى أين تتجه.

فجأة نشب نزاع خلفها: "رجال أولستر هم الذي سيفوزون!" – "لا، بل رجال كونّاخت. لا أحد يستعصي على رجال كونّاخت!" – "أولستر!" – "كونّاخت!" – "لتتريثوا، إن رجال مايد لم يرموا بعد!".

بقيت 'مايد' عالقة في أذني جرينه. إنني أنتمي إلى مايد. فمايد هي مملكة والدي. هناك خمس ممالك في إرين، وخمسة ملوك، أحدهم هو الملك المعظم، والدي، كورماك ماك آرت. – "هل تعتبرينه طيبا لأنه دائما ما يستسلم لرغبتك؟" –

"الآن يأتي دور لاينستر!" – "رجال كونّاخت لا يمكن التفوق عليهم!" لم تستطع جرينه أن تتحمل أكثر من ذلك، فانصرفت مسرعة.

وصلت جرينه إلى الإصطبل وهي تلهث. كان رئيس الإصطبل يقوم بتجهيز 'جمال البجع'، بينما كان سائق عربة الملك والسائق العجوز ذو الذقن الكثيفة الذي تعلمت جرينه على يديه قيادة العربة يقفان حوله – كانت آلا أيضا هناك.

انتهى إحساس جرينه بالحمى الذي جعل كل ما ترى كأنه حلم. سألت الموجودين: "هل رأيتم عربات الآخرين؟ هل هي أفضل؟"

أجاب سائق عربة الملك: "هناك عربة من لاينستر، يبدو لي أنها تتحرك بخفة أكبر."

"وكيف تقيّم الحصان؟"

هنا أجاب رئيس الإصطبل قائلا: "لا يمكن معرفة إمكانياته. في كل الأحوال لن تكون متواضعة. لكنني راقبت حصانين من مونستر وأتمنى أن أعرف ما نوع الطعام الذي يقدم إليهما."

صدّق سائق العربة العجوز على كلامه، فقال: "أنا غير مطمئن من هذين الحصانين. عليك أن تتخذي حذرك يا جرينه. فهما يستطيعان الفوز على حصانك وعربتك – "

قاطعه رئيس الإصطبل بقوله: "هراء! لن يتغلبوا عليك إن قدت العربة بالطريقة التي تناقشنا فيها جميعا مع بعضنا البعض."

أومأت جرينه، ثم اتجهت إلى فنجوالا وقالت لها: "هلا ثبتِّ لي مشبك الشعر أكثر، أنا لا أريد أن أفقده."

وقف منادي الملك على حلبة السباق وأعلن: "سباق العربات التي يجرها حصان واحد يبدأ الآن! تتنافس على الفوز ثلاث عربات

من مملكة مونستر، عربة واحدة من مملكة لاينستر، ثلاث عربات من مملكة كوناخت، عربتان من مملكة أولستر وعربة واحدة من مملكة مايد."

بعد الإعلان عن أسماء الخيل، قام المنادي بالإعلان عن أسماء المتسابقين. لم تسمع الملكة وماتشا وفنجوالا إلا ما قاله في النهاية: "تقود عربة مملكة مايد جرينه، ابنة الملك كورماك ماك آرت!"

تهامس الأناس الكثيرون الذين كانوا يقفون الآن عند حلبة السباق، وكذلك جميع الذين كانوا يجلسون على المروج: "جرينه – إذن فالأمر صحيح!" – "ابنة الملك كورماك – سيتركها بالفعل تخوض السباق!" وعندما تحركت العربات إلى خط البداية، انصب نظر الجميع فقط على جرينه. كان يمكن رؤية حزامها الذهبي من فوق حافة العربة. توجهت ماتشا بالحديث إلى فنجوالا قائلة: "لقد خلعت معطفها. كيف سمحتِ لهذا أن يحدث؟ هذان الذراعان النحيفان! كم أود أن أبعدها الآن عن السباق. عندما أنظر إلى السائقين الآخرين أجد عمالقة في مواجهة ابنتنا. تلك القبضات، وتلك الوجوه العابسة. إن لهم ظهورا مثل الثيران. ومع هؤلاء تريد جرينه – لا، أنا لا أستطيع الاستمرار في المشاهدة."

هدأتها فنجوالا بقولها: "هي لا تريد أن تتصارع معهم. لا تنسيّ أن ما يهم في القيادة هو مهارة السائق، والحصان."

"لكن الخيول تبدو لي خطرة تماما مثل السائقين. لا، سأبقي عينيّ مغلقتين"

أعطى الملك المعظم بنفسه إشارة البدء. رفع ذراعه، ثم تركه يسقط بسرعة البرق. فانطلقت العربات ومرت من أمام المقاعد الحجرية حيث كان يجلس الملوك.

صاحت ماتشا: "أين هي؟ لا أستطيع رؤيتها على الإطلاق – آه، هناك، على الحلبة اليمنى من الداخل. كيف وصلت إلى هناك؟ لقد كانت منذ قليل تقف في الوسط. إذا ظلت على الحلبة اليمنى – اليمين علامة طيبة، اليمين يأتي بالحظ – إذا ظلت تقود العربة على الناحية اليمنى فسوف تنجح. فلتساعدها كل الأرواح الطيبة – إنها في المقدمة! إنها تأتي أولا بعربتها! سوف ترى الآخرين. ويا للسرعة التي يحرك بها 'جمال البجع' ساقيه! لم أرَ في حياتي أبدا شيئا كهذا. إنه حصان رائع! – نعم، ماذا يعني ذلك؟ يريد ذلك الحصان الأبرش أن يقترب من عربتها. من أين تأتي هذه العربة يا فنجوالا؟"

"من مونستر"

"يا لأهل مونستر!"

ردت فنجوالا: "إنهم أهلك، فأنت نفسك تأتين من مونستر، والملكة أيضا."

"لا تشغليني عما يجري يا فنجوالا، فنحن ننتمي إلى مايد. – انظري، هناك سائق آخر يقترب من جرينه."

"إنها عربة من كوناخت."

"فنجوالا، لا أستطيع أن أواصل المشاهدة – إنهم يدركون جرينه – انظري، يقتربون أكثر فأكثر. فلتكن كل الأرواح الطيبة في عونها، يريدون أن يقصوها عن الحلبة اليمنى. إذا ظلت على اليمين." تراخى جسد ماتشا التي وضعت يديها على وجهها وقالت في ألم: "تم اجتيازها!"

"ولكن يا ماتشا، تلك كانت الدورة الأولى! انتبهي، فجرينه ستمر حالا من أمامنا"

استرقتْ ماتشا نظرات من بين أصابعها، ثم سألت: "كم هي عدد الدورات؟"

أجابت فنجوالا: "خمس"

كانت جرينه في الدورات الثلاث التالية تترك لحصانها وقتا. وحين ترى ثغرة تندفع بسرعة البرق من خلالها، وتدفع 'جمال البجع' بصيحة قوية تجعله يصل أحيانا إلى العربات التي في الصدارة. ثم تتراجع بعدها ثانية إلى الخلف. ادخري قوة 'جمال البجع' للدورة الأخيرة، هذا ما كان قد نبه به عليها سائقو العربات. تظاهري أمام الآخرين على مدار ثلاث دورات بأنك تريدين الوصول إلى المقدمة ولا تستطيعين. اصرخي بقوة حتى يسمعك الجميع، ولكن أثناء ذلك ظلي ممسكة بالزمام في هدوء. عليهم أن يخرجوا من خيولهم أقصى ما تستطيع. وفى الدورة الخامسة يأتي دورك يا جرينه.

لم يعد أحد يحسب حسابا لجرينه، لا من السائقين في السباق ولا من المشاهدين. أما الملك العظيم، فلم يكن في استطاعة أحد أن يطلع على ما يدور في عقله. وبالنسبة لآتان، فقد صار غير مبالٍ بأخته. كان يكفيه أن يرى عربة من مونستر في المقدمة. بان الحزن على وجه الملكة، بينما ابتسمت فنجوالا وبكت ماتشا.

كانت جرينه تقود في الوسط بين العربات التي تبعد عن المقدمة. لم يكن أحد يشعر كيف كان عليها أن تتحكم بنفسها. حرّك 'جمال البجع' أذنيه إلى الخلف. فقد كان في انتظار الإشارة التي لم تأتِ بعد.

وفي الجزء الأخير من الدورة الرابعة، جذبت جرينه الزمام ثم أرخته ثانية في الحال. صاحت: "اجرِ يا 'جمال البجع'، هوووهو!" رفع 'جمال البجع' رأسه عاليا، وفي اللحظة التالية صار الحصان والعربة على خط واحد. "اجرِ يا 'جمال البجع' هوووهو!"

تراجع حصان على يسار جرينه، وعلى يمينها انحرف سائق في آخر لحظة بعربته جانبا. فقد مرت جرينه بسرعة كبيرة من جانبه. وبالتحديد أمام المقاعد، حيث كان يجلس الملوك استطاعت اللحاق بعربة مونستر. كان السائق مستعدا لكل شيء، إلا لجرينه. عندما رآها بجانبه، وجه حصانه ناحيتها لينحيها عن الطريق. لكنها رأته، وحينئذ أرجعت رأسها إلى الخلف وصاحت: "هوووهو، 'جمال البجع'، هوووهو!"

ظلت جرينه منطلقة بعربتها. صرخت الملكة وقفز الملك واقفا. صاح فين ماك كومهال الذي كان جالسا بجانبه: "إنه يدفع الفتاة للموت!" وصاحت ماتشا: "سأقتله بيدي!"

أما جرينه فقد كانت تسمع صوت البجع. كانت هناك ثلاث بجعات تحوم فوقها وتنادي نداء يتجاوز حلبة السباق. ظلت تدور أمام عربة جرينه. فهل كانت العجلات لا تزال تتحرك فوق العشب؟ وهل

كان ‘جمال البجع’ لا يزال يلمس الأرض؟ ألم تكن جرينه تطير خلف البجع؟

بقيت عربة من مونستر، وأخرى من كونّاخت، خلف جرينة مباشرة.

هنا صاح رئيس الإصطبل: "عند المنحنى سيحسم الأمر. فإذا ظلت جرينه حتى ذلك الحين في المقدمة، تكون قد حسمت السباق."

"انظروا إلى البجع!" هكذا صاح السائق العجوز ذو الذقن الكثيفة.

هز سائق عربة الملك رأسه قائلا: "البجع! الأفضل أن تنتبه لما سيحدث في المنحنى."

في المنحنى حاول سائق مونستر مجددا أن ينحي جرينه عن الطريق. الآن توجهت جرينه بعربتها صوبه، متتبعة في ذلك نداء البجع، وجاوزته ولا تفصل بين عجلات عربتيهما سوى مسافة قصيرة جدا لا تتعدى طول الإصبع. بعدها انطلقت جرينه دون أن توجه نظرها يمينا أو يسارا.

"هوو، ‘جمال البجع’، هوو!" هب جميع من كانوا حول حلبة السباق واقفين، وصاحوا: "هوو، ‘جمال البجع’، هوو!" لم يكن أحد منهم قد رأى مثل ذلك من قبل. جرى رئيس الإصطبل وكلا السائقين

إلى خط النهاية وهم يلوحون بأيدهم ويصيحون: "هوو، ‘جمال البجع’، هوو!". هرولت جرينه إليهم. كان هذا هو خط النهاية.

جرى ثلاثتهم على حلبة السباق. فتوقف‘جمال البجع’. حمل رئيس الإصطبل جرينه إلى خارج العربة’ وناولها السائق العجوز إلى سائق عربة الملك الذي حملها بدوره إلى المقاعد، حيث كان الملوك في انتظارها.

عندئذ صاح فين: تحيا ابنة الملك كورماك! ويحيا ‘جمال البجع’! تحيا جرينه! لقد أصاب أويسين بترك الحصان لك."

ضم الملك المعظم جرينه إلى صدره. وعندما جاءت فنجوالا بالمعطف قالت لها جرينه: "ما زال عالقا في شعرى يا آلا. كنت أعلم أن مشبك البجع سوف يصمد في شعري أكثر من أي مشبك آخر"

كان أول مساء في عيد الساموين، هذا هو أجمل مساء عاشته جرينه حتى الآن. كان المساء الأول دائما جميلا، ولكن مثل هذا المساء، لا، لم يمر واحد في مثل جماله. لم يغمر قاعة الاحتفالات فيما قبل أبدا هذا القدر من الضحك، ولم يعزف فيما قبل أبدا هذا الكم من الموسيقيين. كذلك لم تضأ القاعة ولم تتوهج النار أثناء اشتعالها على المواقد الأربعة بهذا الشكل أبدا. ما أجمل الكؤوس وهي تلمع

وصواني اللحم وهي تبرق، وما أطيب الرائحة المنبعثة من اللحم المشوي ومن النبيذ.

هل كان مبعث ذلك كله أن جرينه جلست اليوم بين الملوك؟ كان فين ماك كومهال قد أحضرها من مقعد السيدات. ثم خطب في الحضور قائلا: "من حارب بشكل ملكي، لا بد وأن يجلس بين الملوك!". سمح لنفسه أن يلقي تلك الكلمة أمام الملوك – فقد كان الأكبر سنا بين كل النبلاء الموجودين. وقد لاقت كلمته استحسانهم جميعا.

قبل قيام جرينه تمكنت آلا من أن تهمس لها قائلة: "احذري يا جرينه، لا تشربي!"

وقد التزمت جرينه بذلك دون أن ترفض أي كأس قدمت إليها. فقد كانت في كل مرة تدخل أنفها فقط داخل الكأس، وتسعد بلمس المعدن البارد بيديها، ثم تمسح بعدها شفتيها بإصبعها.

ماذا جرى لعقل هؤلاء الرجال، الذين أرادوا فجأة أن يشربوا معها؟ وللعجب من الطريقة التي تحدثوا بها! "لم توجد قط في إرين ابنة ملك مثلك. سوف يُحكى في كل منزل عن جسارتك!" – "شرابك سوف يمنحني حظا في سباق عربات الحرب الذي سأشترك فيه غدا!"

– "لقد أحسنوا اختيار اسمك، يا جرينه؛ لأن شهرتك سوف تشع مثل الشمس!"

في كل مرة كان على جرينه أن تكتم الضحك. إذن هكذا يتحدث الرجال عندما تسيطر الخمر على رؤوسهم – كان هذا هو ما يدور في خلدها – وبالأمس كانوا متخوفين من أن اشتراكي في السباق لن يجعل منه سباقا حقيقيا. ما قيمة كلامهم إذن؟

احترسي يا جرينه! –

استدارت جرينه. لا، لم تكن آلا تقف وراءها. وحين نظرت على الناحية الأخرى، لم ترها بين رؤوس وأكتاف الرجال الذين كانوا يجلسون على المقعد الموجود أمامها.

كان يمكن رؤية جذوة النار المتوهجة في المدخل عبر الباب المفتوح. أيضا في الخارج كانت تدور الأسياخ. وكان الناس يتجمعون بكثافة، يضحكون ويغنون، وكان صوت الموسيقى يصل إلى القاعة. الآن بدأوا يرقصون حول النار. انتظرت جرينه نظرة من أبيها. وعندما أومأ، قامت وخرجت دون أن ينتبه إليها أحد. جميع الذين كانوا يشاهدون وقفوا على هيئة دائرة محكمة حول الراقصين، وأخذوا يصفقون بأيديهم على وقع الموسيقى، أو يدقون الأرض بأقدامهم.

اندفعت جرينه وسطهم، وهناك لمحت آتان. كان واقفا بين الناس على مسافة غير بعيدة منها. حين كادت تصل إليه وتناديه، لاحظت كيف كان يحدق في كتفيّ فتاة ولا يحول عينيه عنها. فجأة جذب الفتاة من ضفيرتها فاستدارت مذعورة. أبدى آتان اندهاشه ووجه نظره إلى الأمام، فضحكت جرينه. ثم أرادت من جديد أن تناديه، وحينئذ رأته وهو يضع يده على كتف الفتاة التي استدارت مرة أخرى. لكن في تلك المرة ظهر الرفض على وجهها ورفعت كتفها عاليا.

انتظرت جرينه ما سيحدث بعد ذلك. لم يسحب آتان يده، بل تحسس ذراع الفتاة العاري، وقال لها شيئا، فلم تستدر في تلك المرة. مدت جرينه ظهرها، أرادت أن تقترب من الاثنين فدفعت رجلا جانبا.

سمعت آتان يقول: "أريد أن أرقص معك، أيتها الحسناء!"

وقبل أن تدري، كان الاثنان قد اندسا بين الراقصين. شاهدتهما جرينه. شاهدت كيف كانا يقفزان وكيف كانا يدوران! كيف كانت ضفيرة الفتاة السوداء تطير! كيف كان آتان يضمها وكيف كان وجهاهما متوهجين وهما يدوران!

لم يرفع آتان عينيه عن الفتاة أثناء ذلك. أما الفتاة فكانت تنظر إليه فقط بين الحين والآخر. يا لخفتها وهي ترقص، من المؤكد أنها

كانت تحب الرقص. بالنسبة لآتان كانت حركته أكثر تثاقلا مثل حال أي رجل. هو لم يكتف بشم الكأس، بل شرب كثيرا. بعدها اختار تلك الفتاة وقال لها: "أريد أن أرقص معك، أيتها الحسناء!"

رأت جرينه يده موضوعة على كتف الفتاة، كما رأتها قبل قليل وهي تتحسس ذراعها. كان ذلك بين الناس الذين لم ير منهم أحد ما حدث.

استدارت جرينه وجرت إلى داخل القاعة. لم تستطع أن تتحدث عن ذلك حتى مع آلا، ليس بعد. فقط اقتربت جرينه منها كثيرا، وقالت لها: "أريد أيضا أن أتعلم الرقص، يا آلا."

"ولم لا، يا جرينه! إذا أردتِ، يمكننا أن نبدأ من الغد."

احمر وجه جرينه من فرط سعادتها وقالت: "بعد الساموين"

أريد أن أرقص معك، أيتها الحسناء.. أريد أن أرقص معك، أيتها الحسناء.. لم تخرج تلك الكلمات من رأسها، فقد سحرتها. بل إنها لم تفارق أذنها حتى استسلمت للنوم.

رقصة الفرح

تعلمت جرينه الكثير في السنوات الخمس التالية.

بدأ ذلك بارتباك أصاب طاولة الطعام في مساء أحد الأيام. سقط رئيس المطبخ ولم يتحرك. فاختلطت كل الأمور على الخادمين والخادمات الذين كانوا دوما في انتظار تعليماته، بينما كان بهو قلعة الملك ممتلئا بالضيوف!

أدركت جرينه فجأة، أن النظام الذي كانت تعيش فيه لم ينشأ من تلقاء نفسه. وبدأت منذ ذلك الحين تتردد مع فنجوالا على المطبخ لتشاهد كيف يتم طحن الحبوب، وإعداد عجينة الخبز، ثم خبزها. تعلمت أي أنواع قطع اللحم تناسب الشواء وأي منها يناسب الطبخ. كانت تضع أحيانا اللحم بنفسها على الأسياخ، أو تقوم بنفسها بالهرس – إذا وصلت في الوقت المناسب – بمطرقة خشبية في إناء الزبد، ولا تتوقف قبل أن تنتهي من هرس الزبد حتى ولو ظلت ذراعاها تؤلمانها بشدة.

تعلمت جرينه التمييز بين كيفية إشعال نار للشواء ونار للتدخين، وأن الخشب المستخدم في ذلك لا يكون مقطعا إلى حطب منذ البداية. تعلمت أيضا أن ورشة الحدادة لا تنتج فقط الرماح والسيوف، ولكن أيضا الفؤوس والقدور وأن كل ضربة على السندان لا تنزل على نفس النقطة من تلقاء نفسها، بل هو أمر لا بد من تعلّمه.

اكتشفت جرينه عالما جديدا.

تعلمت من ماتشا الغزل، ومن فنجوالا النسيج والحياكة. وعلمتها والدتها العزف على القيثارة، بينما علمها والدها لعبة الشطرنج. كانت تهتم بكل الأشياء، حتى وإن لم تكن كلها تحقق لها نفس القدر من السعادة. لكن الجلوس إلى جانب ماتشا كان ممتعا بسبب صراحتها المطلقة في الحديث. كثيرا ما كانت جرينه تتعمد ألا تغزل خيطا مستويا، فقط لتستفز ماتشا.

عندها كانت ماتشا توبخها بقولها: "من هذا الخيط سوف يغزل قميص لك أنت، ليس لي أنا! لن أدع جسدى يخدش منه. أود أن أعرف لم تريدين تعلم الغزل. أنت ابنة ملك، وبالتالى ستتزوجين رجلا ثريا ولن تحتاجي قط إلى أن تغزلي. لذا أود أن أعرف لماذا يجب عليّ أن أتحمل كل ذلك الغيظ منك" أو كانت تقول: "جرينه، هذا

الخيط لن يستخدم في صنع كسوة للحصان. معك، كل تعب يذهب هباء، فيداك لا يناسبها إلا زمام الخيل"

عندما كانت جرينه تتصنع الحزن الشديد، كانت ماتشا تغير سريعا من أسلوبها فتقول: "أعلم أنه ليس لك ذنب في ذلك. فوالدك ووالدتك قد تركا لك كل الحرية. لكن لا يوجد والدان أفضل من والديك.. يجب ألا تنسي ذلك أبدا!" وحين تحتضنها جرينه بعد ذلك ضاحكة، كانت تعود وتوبخها: "تخدعينني مجددا، أنا السيدة العجوز. استحي! والآن عليك التركيز، وإلا فسوف أغضب حقا."

وكم كانت النميمة رائعة مع ماتشا! كانت تعرف عن كل خادمة شيئا. كل أسرة في بلاط الملك كانت تعتمد على ماتشا؛ لأن من خلالها كان يمكن الوصول إلى أشياء كثيرة. فقد كانت في النهاية خليلة الملكة.

مع فنجوالا كان كل شيء مختلفا. كانت لا تؤنب ولا تتذمر قط. لكن ذلك لم يكن السبب في أن تحب جرينه الجلوس إليها. أيضا لم تكن القصص التي كانت تحكيها آلا هي السبب، حتى وإن كان لها علاقة بالأمر. ففي البداية، عندما كانتا تصنعان السفينة الصغيرة من الورق الملفوف وتجلسان على المغزل، أو عندما كانتا تضعان القماش على ركبتيهما وتدخلان الخيط في إبر الحياكة، لم تكونا تتحدثان

مطلقا. كانت فنجوالا تنظر فقط بين الحين والآخر إلى نقشة النسيج أو على موضع الخياطة. كلتاهما كانتا تنغمسان في أفكارهما.

لكن فيما بعد، كانت آلا تبدأ فجأة، ربما هكذا: "كيف خشخش الغاب آنذاك." أو: "كيف ظهر القمر بحمرته في السماء آنذاك." أو "كيف كان الندى البارد يغطي العشب آنذاك." كان صوت فنجوالا عندئذ يختلف تماما عن أي وقت آخر. كان يأتي ناعما ورقيقا مثلما كان في الليلة التي تحدثت فيها مع البجع. كانت جرينه تنصت إليها وكأنها مسحورة. كان تعيش القصة التي تحكيها آلا - فاختبأت مع البجع بين الغاب، وركبت الحصان الأبيض في ليل القمر، ورقصت حافية على العشب المبلل بالندى. كانت جرينه تظل مأخوذة حتى بعد انتهاء قصة آلا بكثير.

كان الأمر أيضا يختلف تماما مع والدتها. كانت الملكة مرحة وقليلة الصبر في نفس الوقت. عندما كانت في مثل سن جرينه، كانت تتردد على مدرسة للشعراء، وهناك تعلمت العزف على القيثارة حتى أتقنته تماما.

وقد أدركت الملكة مبكرا أن جرينه لن تبلغ في هذا المجال حد الإتقان. دونما يصيبها ذلك بالإحباط. فقد كان يسعدها كثيرا أن تجد جرينه حولها. كانت فقط تفتقر إلى الصبر اللازم. أما جرينه فكانت

مصرّة على التعلم. عندما كانت تطول عليها فترات الراحة، كانت تلح على استكمال العزف. وبقدر ما كانت تستمتع بالاستماع إلى قصص والدتها عن الدروس التي كانت تأخذها هي في السابق، وعن مدرسيها وزملائها، إلا أن تلك القصص لم تكن تنسيها، أنها هي نفسها تريد التعلم.

كانت يمكن أن تنسى ذلك، بل تنسى كل شيء من حولها، فقط عندما تبدأ والدتها في الغناء على أنغام القيثارة، عندما كانت تستحضر الشتاء بصوتها الرخيم:

"بارد هو الليل وقد انسدل الضباب

على ضفتي البوينه، في سهل اللورج.

غطى الثلج أعالي منحدرات الجبال،

وضرب الغزال الأرض بقدميه بحثا عن مرعى أخضر، ولكن بلا جدوى."

كانت الرعشة تعتري جرينه وتسري في جميع أوصالها عندما يأتي الجزء القائل:

"فقط من بعيد من داخل الليل الوحيد البارد

يبكي النشيد الجوعان للذئاب"

كم كان على جرينه أن تتحكم في نفسها حتى لا تصفق أثناء غناء والدتها لأغنية 'مهايري' الأسود:

"سرى في الأفق فوق البحر لون رمادى يميل إلى الوردي.

كنت مستلقيا، ورأسي ممددا على ركبتيك،

أنظر إلى زرقة السماء وقت الغسق

وإلى طيور النورس التي تحلق وتصيح

عندها وضعت يديك على قلبي

وملت فوقي، فأحسست كأن

الأرض تلين وتذوب،

كأني أطير بلا نهاية،

وقبلتك على شفتيّ، عبر مملكة الجان

هو- رو، مهايري دوب!

هو- رو، مهايري دوب!"

ثم كانت هناك أيضا أغنية، تحس معها جرينه وكأن والدتها تنسى كل ما حولها، كأنها تفكر في شيء بعينه:

"آه، أيتها الفتاة البيضاء ذات الخصلات الذهبية المجعدة

سبب ويلي وهمي في كل صباح،

أننى لا أستطيع الزواج بك.

آه، لو لم أكن رأيتك أبدا!"

كانت تلك الأغنية حزينة، تحكي قصة شخصين جميلين، ربط الحب بينهما، ولم يستطيعا الزواج لأن الشاب لم يرقَ لطبقة النبلاء التي كانت تنتمي إليها الفتاة. فقط بعد الموت استلقيا تحت الأرض جنبا إلى جنب، بينما نمت الأشجار فوق قبريهما وتشابكت تيجانها.

بكت جرينه في المرة الأولى التي سمعت فيها تلك الأغنية. وبعدها بفترة طويلة سمعتها مرة أخرى فثارت بشدة على والديّ الفتاة. ثم كانت هناك مرة أخرى بعدها بفترة، علقت فيها جرينه بقولها:

"لو كنت مكانهما لما تركت أحدا يمنعني!"

"هكذا يتحدث الإنسان عندما يكون في مثل سنك". بعد أن قالت والدتها ذلك خطرت ببالها فجأة نبوءة الكاهن.-

اختلف الأمر كذلك مع الوالد أثناء لعب الشطرنج. فقد كان صبره بلا حدود وهو يطلب من جرينه أن تنصت إليه بانتباه.

"سأشرح لك اللعبة وطريقة تحريك كل شكل من الأشكال. احفظي ذلك، وفكري مليا، واسأليني إن استعصى عليك فهم شيء. عليك أن تقرري متى نبدأ اللعب، ولكن عندئذ لا بد أن تكوني واثقة."

كانا يمضيان لياليَ عديدة في الحديث مع بعضهما البعض. كذلك كانت جرينه تشاهد على مدار ليال عديدة أباها أثناء لعبه مع آتان أو مع والدتها.

في مساء أحد الأيام، قالت لوالدها: "أظن أن الوقت قد حان الآن" تعمدت أن تنتظر طويلا، ليس فقط بسبب تفكيرها في كلمات والدها لها، بل لأنها لم تكن تريد أن تشعر بالحرج أمام آتان. لكن في ذلك المساء كان والدها قد عهد إلى آتان بمهمة. فاستنتجت جرينه سريعا أنه أبعد أخاها عن الصالة خصيصا من أجلها. كم كان مطلعا على كل شيء دون أن ينطق بكلمة.

بعد أن وضعت جرينه لعبة الشطرنج على الطاولة، أسندت وجهها على كتف أبيها للحظة. خسرت جرينه اللعبة في ذلك المساء الأول، لكن لم يتملكها الغضب على الإطلاق. شرح لها والدها بدقة، متى لعبت دون أدنى حرص، وبأية حركة كان من الممكن أن تحسم اللعبة لصالحها. كانت تلك هي الطريقة التي اتبعها دوما. لهذا كانت

جرينه تشعر بالراحة وهي جالسة في مواجهة والدها، مبعدة عن ذهنها كل الأفكار الأخرى، ومنصبة التفكير على اللعب.

كانت الساعات تمضي بسرعة كبيرة في تلك الأمسيات. فقد شغلهما اللعب عن أي شيء آخر. كثيرا ما كان النوم يغلب الخادمات الجالسات عند الموقد، وكان ساقي الملك يشخر أثناء نومه على مقعده، بينما كانت تنخفض جذوة النار. عندها كان والد جرينه يأخذ فراء ليغطي به ابنته حتى ركبتيها أو ليضعه على كتفيها.

لن تنسى جرينه أبدا ذلك المساء، الذي لم يفز فيه والدها بأية لعبة. في ذلك المساء طلب كأسا من النبيذ، أعطاه لجرينه وهو يقول لها:

"فلتشربي نخب فوزك على الملك!"

أومأت جرينه. لكن حين شربت كان ما يدور برأسها هو: سأشرب من أجل أن تظل علاقتنا قوية.

ثم كان هناك آتان الذي بدأت الأمور معه تسير على نحو آخر. لم تعتبر جرينه أبدا أنه من الممكن أن يسود المرحُ علاقتهما، كما سبق وأن قالت ماتشا في عيد الساموين، وإن كانت وقتها قد قصدت معنى آخر. في البداية كانا يتجنبان بعضهما البعض. وكان آتان هو السبب في ذلك.

كانت فنجوالا قد قالت لجرينه: "لا بد أن تفهميه. فبالرغم من عودته إلى البيت، إلا أنه يحس بالغربة بيننا. لا أحد يعرفه، الكل يعرف فقط أنه ابن الملك المعظم. ربما يكون قد استسلم لذلك. ثم إنه يعيش هنا ولا يسمع إلا: 'جرينه! ابنة الملك كورماك! ابنتنا، ابنة الملك! ابنة الملك كورماك!' – ولا أحد يتحدث عنه. بم كنت ستشعرين لو كنت في نفس وضعه؟"

فكرت جرينه طويلا في ذلك. وأصبحت منذ ذلك الحين لا تضيع فرصة تثبت له فيها أنها تفهمه. أصبحت ترجوه مرارا أن يحكي لها عن بلاط الملك في مونستر. كم كانت عيناه تضيئان عندما كان يحكي لها عن رفاقه الذين كان يتنافس معهم في المسابقات المتعلقة برمي الأحجار، وبرمي الرمح، وبلعب الكرة، وبالوثب الطويل، وبالوثب العالي، وبالجري. كان يعرف كل شخص يعيش في القلعة، وكل شخص يأتي إليها.

حكى لها عن الصيد في الجبال، وعن السفن التي كانت ترسو أمام المناطق السكنية المنتشرة على الساحل. كان قد رأى الكثير. وكانت جرينه تستمع لما يبوح به لها من حنين إلى الجبال وإلى الماء، وتفكر: الأماكن حول تارا أيضا جميلة، سوف أريه إياها.

وفي صباح يوم من الأيام، وقفت بشكل غير متوقع بعربتها التي يجرها 'جمال البجع' أمام منزل آتان الذي فوجئ لدرجة أنه لم يجد عذرا، فصعد إلى العربة وانطلقت بهما. عبرا من البوابة الشمالية تاركين القلعة من خلفهما. واخترقا قطعان البقر متجهين صوب سهل تارا الأخضر. لم تترك جرينه بحيرة، أو عربة يد لراعي أغنام وضعت على مقربة من طريقهما، إلا وأرته إياها. ذهبت معه إلى الفلاحين الذين كانوا طبقا لنظام الإقطاع يمدون بلاط الملك بالبقر، والخنازير، والحبوب. قادت العربة به كذلك إلى الأحرار، الذين كانوا يقيمون بضيعاتهم الكبيرة ويمدون الملك بالمحاربين.

حدث بعد فترة قصيرة من عيد ميلاد جرينه الثالث عشر أن انتهت بهما رحلة شبيهة إلى حفل زفاف. كانا قد رأيا النار من على بعدٍ. وعندما أوقفت جرينه حصانها، حملت الريح إليهما موسيقى عازفي القرِب.

"هل ندخل؟" سألت جرينه هذا السؤال وهي تحث 'جمال البجع' على التحرك، فانطلقت العربة.

صاح آتان: "ألا تستخدمين الشوكة مع الحصان أبدا؟"

أجابته جرينه: "إنني أقود بيديّ! لا أستطيع أن أرى آثار تسلخ على سيقان حصان، ولا أيضا سائقي الخيول الذين يستخدمون الشوكة. فعنفهم المفرط يجعلهم عديمي الكرامة، ومتبلدين، وكسالى. في البداية يمتدح جمال الخيل، وبعدها يعذب بالشوكة لأنها الطريقة الأسهل في قيادة حصان. 'جمال البجع' والشوكة – الفكرة في حد ذاتها تشعرني بالألم."

صاح آتان: "لم أكن أريد ذلك!"

كان الرقص حول النار على قدم وساق عندما توقفت جرينه. كان الغروب قد بدأ، لكن الحصان الأبيض بكسوته الحمراء، والعربة بحليتها البرونزية، والزينة في شعر جرينه.. كل ذلك جعل الناس يعرفونهما على الفور: "ابنة الملكِ كورماك! ابن الملك كورماك! مرحبا! مرحبا! يا للسعادة! يا للسعادة!"

التف الناس حولهما وحملوهما إلى خارج العربة، ثم أوصلوهما إلى العروسين. أصابت جرينه الدهشة عندما وقفت أمام العروس. ألم تكن هي نفس الفتاة التي رأتها في عيد الساموين؟ الفتاة التي رقص معها آتان؟ ولكن لا، فقد كانت هناك فتيات كثيرات ذوات شعر أسود، فتيات كثيرات لهن أجساد جميلة.

نظرت جرينه من الجانب إلى آتان. لم تظهر على وجهه ملامح الدهشة، وكذلك كان الحال بالنسبة للعروس.

خلعت جرينه المشبك الذي كان يزين معطفها وقدمته للعروس وهي تقول لها: "خذيه. فليس معي هدية أخرى. لم أكن أعرف أن اليوم عرسك."

تم تقديم كؤوس الخمر لهما. كما شارك الاثنان ضيوف حفل العرس الرقص حول النار. عندما وضع آتان ذراعه حول جرينه، كادت أن تتعثر قدماها، فقد كانت مرتبكة إلى حد كبير. إنه أول رجل يراقصها! لكنه في هذه المرة لم يقل: "أريد أن أرقص معك، أيتها الحسناء!" كيف له أن يقول ذلك وهي شقيقته.

لكنه قال شيئا آخر فيما بعد، عندما استسلما تماما للموسيقى: "إنك تتمايلين بشكل لا بأس به يا أختي الصغيرة" وعندما نظرت إليه قال: "لم أكن أظن أنك مرنة إلى هذا الحد"

ابتسمت ابتسامة ساخرة وراقبته. لا، لم يكن يبحث بنظراته عن فتاة أخرى، بل كان ينظر إليها، إلى كتفيها، إلى حزامها، وإلى الجزء ما بين هذا وذاك. فاحمر وجه جرينه. كان قد لفت انتباهها قبل عدة أيام أن صدرها بدأ يتخذ ملامح ظاهرة تحت القميص. كانت في

العادة ترتدي دائما معطفها. الآن فقط، من أجل الرقص قامت بتعليقه على العربة.

رفع آتان ذراعها إلى أعلى وجعلها تدور يمينا ويسارا. "إنك تجيدين الرقص يا جرينه. ممن تعلمتيه؟"

"من آلا."

"من خادمتك؟ لو كنت علمت ذلك! لكنت راقصتها منذ زمن وجعلتها تدور"

"آلا لا يحركها أحد، آلا تحلق في الهواء."

صاح آتان: "بل أنت لا تعرفين! ربما تكون هكذا معك. لكنها بالتأكيد تقبل أن يحركها رجل"

لم ينتبها كيف مر الوقت سريعا. وعندما أحضر آتان فتاة أخرى ليراقصها، تدافع الصبية فورا حول جرينه ولم يفوتوا رقصة واحدة. فجأة لاحظت جرينه اختفاء العروسين. ولأن الليل كان قد أوشك أن ينتصف، لذا استعجلت العودة إلى المنزل.

سأل آتان: "هل تريدينني أن أقود؟"

"لا، 'فجمال البجع' لم يترك قط لأيد أخرى. تستطيع النوم إن شئت"

تثاءب آتان أثناء قوله: "أتعجب من الناس الذين يلزمون أنفسهم بالزواج فورا – ويبقون معا حياة كاملة!" ثم تثاءب ثانية وقال: "اكتفيت بما كان لي منها على مدار ثلاث ليال."

انحبست أنفاس جرينه. إذن فالعروس هي بالفعل الفتاة التي كانت في عيد الساموين، وقد عرفها آتان بنفس القدر الذي عرفها به ذلك الرجل الذي تشاركه الآن فراشه. لماذا تحدث آتان عن ذلك؟ ثم لماذا أيضا بكل هذا الاستهجان؟

تمدد آتان بجانبها وقال: "وبعد تسعة أشهر سيحتفلون مجددا بعيد. يمكننا أن نحضره إن فكرت في ذلك يا جرينه."

كان رأس جرينه يموج بالأفكار حتى أنها سعدت حين نام آتان أخيرا، فقد كان عليها أن تفكر في كثير من الأمور.

صلصلت العربة أثناء عبورهما من البوابة الأولى القلعة، وعندها استيقظ آتان.

سأل: "هل وصلنا إلى البيت؟ بهذه السرعة، كيف يمكن ذلك؟"

لم تجب جرينه. كانت قد أدخلت يديها تحت المعطف وتركت الزمام ملقى على ركبتيها، في حين هرول 'جمال البجع' حتى منزل آتان. بعدها قادته عائدة إلى البرج الخاص بالسيدات، وصفرت مرتين

مستخدمة في ذلك أصابعها، فجاء فتى الإصطبل عبر الساحة مترنحا، وقد بدا عليه النعاس.

كانت فنجوالا في انتظارها. فعانقتها جرينه وقالت: "رقصت طوال الليل يا آلا. لا يمكنك تصور كم كان ذلك رائعا. آتان راقص جيد، ولكن كذلك كان الآخرون أيضا. لقد دخلنا حفل زفاف. هل سأل والدي عني. هل كانت أمي قلقة عليّ؟"

"لا يا جرينه. كانت تعلم أنك مع آتان خارج القلعة" خلعت فنجوالا عن جرينه معطفها، وجذبت المشبك من شعرها، ثم قامت بتعليق حزامها. "هل أنت جوعانة؟ هل تريدين أن تشربي؟"

هزت جرينه رأسها وقالت: "كل ما أريده هو أن أستلقي، وأنت عليك أن تجلسي بجانبي"

أضرمت فنجوالا النار، وألقت قطعا من الخشب على الجمر. بعدها غطت جرينه، ثم جلست بجانبها وانتظرت.

"آلا، أعتقد أن قمصاني قد ضاقت عليّ، ولا بد أن أحصل على أخرى جديدة."

ردت فنجوالا قائلة: "نعم. لكن حتى تحت القمصان الجديدة لن تستطيع أن تخفي صدرك. ولا داعي لذلك أيضا، فمن الجميل أن تصبحي امرأة."

تأخذ الأمور منحى جيدا عند التحدث إلى آلا.. هذا ما دار في رأس جرينه. أضاء الخشب المشتعل الحجرة.

"آلا، هل يمكن لي أن أنجب طفلا الآن؟"

"لا يا جرينه، ليس بعد."

"ذلك لأنني حتى الآن لم أمنح قلبى لرجل، أليس كذلك؟ "

"هذا في المقام الأول. لكن السبب هو أن منبع الإنجاب في جسدك لم ينضج بعد. عندما يسيل مرة كل شهر، عندها تستطيعين إنجاب طفل"

سألتها جرينه: "منبع؟ أى منبع؟"

"الدم، إنه المنبع الضرورى لكل حياة جديدة."

"وهل سألحظ ذلك عندما يحين الوقت يا آلا؟"

"نعم، جرينه، ستلحظين، لأن جسدك سيؤلمك. ستشعرين بذلك وسترينه. والآن، بما أننا تحدثنا عن الأمر، فلن يصيبك الذعر حين يحدث."

أخذت جرينه نفسا عميقا مثلما تفعل في كل صباح حين تخرج من البيت إلى الهواء النقي. أغلقت عينيها، وجذبت ذراعيها تحت الغطاء، واندست في الدفء، ثم قالت: "يغلبنى النعاس يا آلا"

كانت لا تريد أن تبدأ الآن بالتفكير فيما قاله آتان عن العروس الشابة.

الحب كما أريده

كانت جرينه في السادسة عشرة من عمرها عندما سمعت لأول مرة بديرميد.

كانت قد أقلّتْ أباها وأخاها بعربتها ليصطادا – فقد كان الملك يترك سائقه وعربته الخاصة في القلعة عندما كان يتوجه للصيد، وكان يطلب من جرينه دوما أن تقله هي بعربتها، مما كان مدعاة لفخرها – وأصبحوا الآن في طريق عودتهم للمنزل.

"تتقنين الدوران من حول كل فرع يابس" قال ذلك عدة مرات.

"لا يوجد حصان في إرين كلها يضع حوافره على الأرض في خفة ورقة مثل 'جمال البجع'"

تدلى من مؤخرة العربة ثعلبان، وأوزة رمادية. كان الملك وآتان لا يزالان يتحدثان عن الصيد، وهم في الطريق إلى ورشة حدادة أردان، الرجل الذي يحترمه ويجله الجميع. لم يكن الملك يعبر أبدا من أمامه دون أن يحييه.

اليوم، كانت تسمع من بعيد خلف السور أصوات أكثر من أي وقت آخر. واستطاعت جرينه التي كانت تقف في الغربة رؤية رجال كثيرين يتحركون هنا وهناك في الساحة. كذلك كانت تقف هناك بعض العربات. وكان الباب المؤدي إلى ورشة الحدادة مفتوحا، تنبعث عبره رائحة نار.

قالت جرينه: "أردان عنده ضيوف. لا بد أنهم محاربون، فجميعهم يحملون سيوفا في أحزمتهم، وبعضهم يتحركون هنا وهناك وبأيديهم رماح."

على البوابة قفز في اتجاههم كلب كبير أصفر اللون، ونبح نباحا شديدا. اتجه في انفعال صوب العربة، لكنه لم يعق سيرها على الساحة.

خرج من ورشة الحدادة أردان – الذي يشبه الدب في قوته – وهو عاري الصدر، وقد ضيق عينيه بسبب ضوء النهار الساطع. حين تعرف على العربة، وضع المطرقة جانبا ومشى بخطوات واسعة عبر الساحة.

قال الملك بعد أن رحب به أردان: "اليوم هناك الكثير من الحركة والنشاط عندك."

صاح الحداد: "نعم، نعم! فرجال فين لا يحبون السيوف المثلمة ولا الرماح المقوسة"

وجه الملك نظره صوب الرجال الذين كانوا يقفون الآن معا خلف الحداد وقال: "رجال فين ماك كومهال؟ كان هناك قتال من دون أن أعرف به؟"

نزل الملك من العربة وتوجه نحو المقاتلين. "في آخر يوم للمداولة بين الملوك والنبلاء قمت بإنهاء كل الانقسامات التي كانت قائمة. وكل فرد امتثل لحكمي. فمن هذا الذي لا يحترم كلمة الملك المعظم إلى حد أن يفعل ما يريد بعد أن يرجع من تارا؟ - أين وقع القتال؟"

أحد الرجال التسعة أجاب الملك المعظم بقوله: "كورماك ماك آرت! أنت تتحدث عن قتال. أما أنا فأسميه مشاجرة، وقد حضرنا إليها - ما أحلى وقتها - مثلما يتجه الأعمى صوب اللطمة"

قاطعه الملك قائلا: "أنا لا أوجه لكم اتهاما يا رجال فين، فأنتم موجودون في البلاد لتتدخلوا، عندما لا يكون هناك مفر من ذلك. لكن الآن أستمر في الحديث!"

"نعم، لقد كانت – كما ذكرت – مشاجرات قمنا بالتدخل فيها، بعدما أرسلنا فين إلى ملك أولستر. كان علينا أن نحافظ على أمن وأمان ساحل أولستر. فالمناطق السكنية هناك ليست آمنة من الهجمات من اتجاه البحر. وقد أظهرنا للغرباء ذوي الرؤوس الشقراء أيضا قدر رماحنا وكذلك قوتنا في رمي الحجر. وسيوفنا أيضا لن ينسوها بسرعة. أعني هؤلاء الذين ما زالوا يحتفظون برؤوسهم. كادت مهمتنا تنتهي عند هذا الحد. لكننا في طريق العودة عند مبيتنا في مزرعة أحد الأحرار، شكا لنا صاحب المنزل متاعبه: فأولاد صاحب المزرعة المجاورة له لم يعبأوا بحقوق الصيد وضموا حيوانات الصيد التابعة له إلى منطقة الصيد الخاصة بهم، وذلك بقوة سحرية كما يظن هو. مكثنا عنده عدة أيام وظللنا نراقب الأمر حتى اكتشفنا أن تلك القوة السحرية لم تكن سوى خدم الجار، الذين يقومون بالصيد ليلا ويطاردون الغزلان والأيائل عبر الحدود الفاصلة بين مناطق الصيد. وبسبب ذلك اصطدمنا ببعضنا البعض. كنا عشرة، في حين كانوا هم اثني عشر. والآن نحن ما زلنا تسعة، بينما هم خمسة. لم يحسبوا حسابا لرجال فين."

هنا سأل الملك: "لم يرسل فين أكثر من عشرة محاربين إلى أولستر؟"

ضحك الرجل الواقف تجاهه وقال: "لا، لا، كنا مائة عندما انطلقنا. لكننا قسمنا أنفسنا بعض الشيء في طريق العودة. فبهذه الطريقة يمكن لنا أن نجد نزلا بشكل أسهل."

"ومن تزعمكم أثناء توجهكم صوب أولستر؟"

"تزعمنا ديرميد، القائد الأول عند فين، وأفضل من عمل معه منذ وقت طويل. هو يلقب 'بديرميد ذي كدمة الحب'. يرسل فين قائده الأول هذا أينما كان استتباب النظام أمرا ملحا. وعندها يتحقق ذلك أيضا. لا يوجد بيننا من لا يتهافت على الخروج مع ديرميد."

سأل آتان: "وأين ديرميد الشجاع الآن؟"

أجاب المحارب: "إنه يريد البقاء في بلاط الملك في أولستر لفترة وجيزة"

هنا سألت جرينه: "ولماذا ذلك؟"

نظر المحارب إلى جرينه بينما انفرجت زاويتا فمه حتى كادتا تصلان إلى أذنيه. "لم يسم 'بديرميد ذي كدمة الحب' بدون سبب."

ودت جرينه لو تسأله عن معنى ذلك، لكنها تعقلت، وبدلا من ذلك سألته: "كيف أطلق عليه هذا الاسم؟"

قبل أن يستطيع محارب فين الإجابة قال الحداد: "ما رأيكم في أن يقص علينا المحارب هذا الأمر ونحن نحتسي كأسا من الخمر؟ هل توافق يا كورماك ماك آرت؟"

بدا الأمر وكأن الجميع قد سعدوا بتوجيه جرينه الحديث في هذا الاتجاه. في وحدة وألفة ذهبوا إلى منزل أردان، حيث جلسوا متلاصقين على المقعد حول الموقد. كانوا يريدون سماع قصة ديرميد.

جاءت إمير، الفتاة النحيفة ذات الشعر الأسود، والابنة الكبرى للحداد بالخمر. أعطت والدها الكأس وذهبت لتجلس بجانب الموقد الذي كان يتم طهي اللحم عليه. من خلال نظرة عينيها حثت الخادمة على الاهتمام بأمر النار، بينما كان المحارب التابع لفين يسرد الحكاية:

"لا يعرف شيء محدد، لأنه لم يكن أحد منا حاضرا. كان هناك اثنان آخران، جول وكونال، وقد ذاع الأمر من خلالهما، ليس بشكل فوري، لكن كما يحدث في المعتاد عندما يشرب المرء حتى الثمالة. فالخمر لا تجعل اللسان ثقيلا فقط، بل تجعله أيضا بدون قيد. إذن يفترض أن يكون الأمر قد حدث كالتالي:

كان ديرميد، وجول، وكونال قد ضلوا الطريق أثناء الصيد، أظن أنهم في ذلك اليوم كانوا يتتبعون خنزيرا بريا. على كل الأحوال ضلوا طريق العودة إلى قلعة فين 'ألموين' في ذلك المساء. لكن

رجال فين الحقيقيين لا يهمهم قضاء ليلة في الخلاء، حتى ولو كانت ليلة شديدة البرودة وممطرة. بالرغم من ذلك تحدث ثلاثتهم إلى بعضهم البعض قائلين: لم نتحمل البرودة إذا كان من الممكن أن نجد مكانا دافئا للمبيت؟ وكانوا على حق في ذلك، فقد وجدوا منزلا في واد، لم ينتبهوا إليه أبدا من قبل. وهناك رحب بهم بلطف رجل تقدم به العمر. دعاهم إلى الطعام والمبيت، ونادى ابنته كي تجهز هذين الأمرين للرجال الثلاثة. كانت الفتاة – طبقا لرواية جول وكونال – جميلة إلى حد يفوق أي تصور. على كل الأحوال، فيما يتعلق برأى الرجلين.. لا داعي لأن يؤخذ مأخذ الجد، فكلاهما لم يكن أبدا نواقا. لكن حينما يقول ديرميد أنه لم يرَ من قبل في مثل جمال تلك الفتاة، فلا بد أن تكون تلك هي الحقيقة.

لنعد إلى لب القصة. أقدم الرجال الثلاثة على أكل شوربة البازلاء التي كانت الفتاة قد قامت بطهيها، بينما كان والدها يجهز معها في أحد جوانب المنزل الفراش الذي سيقضي فيه الرجال ليلتهم. عندما كادوا يبدأون تناول الطعام، قفز إلى وسط الطاولة فجأة من أحد أركان الغرفة خروف. وسواء كان ذلك حقيقيا أم لا، فقد حكوا التالي: أنهم لم يستطيعوا إبعاد الخروف الذي ظل يدفعهم بقرنيه حتى أسقطهم من على مقاعدهم. سقط كونال أولا، وتلاه ديرميد. وعندما بدأ جول

يتدحرج في الغرفة، كان صاحب المنزل العجوز قد عاد إلى الغرفة. تصرف وكأن شيئا لم يحدث، ونادى قطة سوداء كانت نائمة في سلام بجانب الموقد، فانقضت على رقبة الخروف وأخذته إلى حيث كان مستلقيا قبل ذلك، إلى الركن الآخر بجانب الموقد.

كان بديهيا أن يريد رجال فين الثلاثة فهم الحالة التي أصابت الحيوانات. هنا قال الرجل العجوز: 'الخروف الذي يرقد هناك يمثل الحياة، وأنتم أيها المحاربون الثلاثة لا داعي لأن تخجلوا من هزيمتكم أمام سطوة الحياة. أما القطة فهي تمثل الموت، الشيء الوحيد الذي يصمد أمام سطوة الحياة.'

أستطيع أن أتصور جيدا ما قد شعر به الرجال الثلاثة. كنت لأفقد مثلهم شهيتي للشوربة لو علمت أن الموت يجلس معي تحت سقف واحد. لكن الشيء الأكثر جمالا حدث، عندما أرادوا أن يذهبوا للنوم. كان الفراش الذي أعد لهم قد تم وضعه في نفس الحجرة التي كانت الفتاة تنام فيها. لم يكن هناك من سبيل غير ذلك، كما ذكروا. لا أعرف السبب تحديدا، لأننا كلنا كنا متلهفين لسماع ما سيحدث بعد ذلك. تصرف كل واحد منهم بهدوء حتى ظن أن الاثنين الآخرين قد ناما. وبعدها جربوا حظهم. لكن الفتاة رفضتهم جميعا. المفترض أنها قالت لكل من جول وكونال: 'لا أستطيع أن أكون لك مرة أخرى،؛

لأنني كنت لك بالفعل مرة.' لم يستطع جول وكونال فهم ذلك. فقد كانا متأكدين من أنهما لم يريا تلك الفتاة في حياتهما أبدا.

فقط بالنسبة لديرميد كان الأمر مختلفا بعض الشيء. فقد وضعت الفتاة ذراعها حول رقبته وقالت: 'كم أود أن أكون لك، لكنني لن أستطيع أن أفعل ذلك لمرة ثانية. فأنا الشباب، أستطيع أن آتي لكل إنسان مرة واحدة فقط. ولكن لكي ترى، كم هو صعب عليّ أن أمنع نفسي عنك، ستحصل منيّ على علامة.' عندئذ ضغطت بإصبعها على جبين ديرميد وقالت: 'من الآن فصاعدا سيصبح لزاما على كل واحدة تنظر إليك أن تحبك.'"

أخذ المحارب الكأس وشرب.

"احتجنا لبعض الوقت حتى استطعنا أخيرا أن نتحقق من ديرميد من تلك الواقعة. لقد قالت له ذلك بالفعل. وما يراه المرء ويعايشه مع ديرميد، لا بد أن يصدقه."

في أثناء ذلك، نضج اللحم الذي كان يتم طهيه في القدر. دعا أردان، الحداد، الملك، وآتان، وجرينه إلى الطعام. أذعنت جرينه، بالرغم مع أنها كانت تفضل العودة إلى المنزل لتتحدث مع آلا عن الأمر. أحب آتان أن يمكث، فهو لم يحول نظره عن ابنة الحداد أثناء

حديث المحارب. كان ما يدور بباله: كدمة حب تذهب، كدمة حب تجيء، سوف نرى.

من العجيب أن جرينه لم تتحدث بعد ذلك مع فنجوالا عن الأمر. طوال المساء وأيضا فيما بعد، في طريق العودة كان يتردد في أذنها ما قد قالته الفتاة 'شباب' لديرميد. "'من الآن فصاعدا سيصبح لزاما على كل واحدة تنظر إليك أن تحبك" من ناحية لم تعجب جرينه فكرة "الإلزام"، فقد كان كل شكل من أشكال الإجبار مرفوضا بالنسبة لها. فإما أن يعجب شخص شخصا آخر أو لا يعجبه. ومن ناحية أخرى أخذت تفكر فيما إذا كانت هي لا تفهم فكرة "الإلزام"؛ لأنه لم يقابلها حتى الآن شخص أحبته فعلا.

سيصبح لزاما على كل واحدة تنظر إليك أن تحبك!

لم تتخلص جرينه من تلك العبارة، وبدأت تشعر بأنه لا بد أن يكون شيئا يتسم بالإجبار وبالسطوة. ربما يكون مثل المياه الجارفة، أو العاصفة المفاجئة، أو مثل النار، شيئا لا يقاوم – سعادة كبيرة أو تعاسة كبيرة. أحيانا كان ينتاب جرينه وهي بمفردها إحساس بأن عليها أن تقفز وتتصدى له. لكن تعود وتريد الاختباء في الزاوية المظلمة للقلعة حتى لا يجد طريقه إليها.

من العجيب أيضا بعد تلك الساعات في ورشة الحدادة أن آتان صار فجأة مهتما كثيرا بالصيد. كانت جرينه قد ذهبت معه كثيرا قبل ذلك. لكنه الآن أصبح مولعا بالأمر. كان يتوجه في كل مرة إلى منطقة الصيد ذاتها، ومثل أبيه كان يصر دائما على أن يُحيي الحداد بكل احترام.

سألت جرينه بسذاجة: "هل تظن أنه سيكون هناك دائما رجال لفين؟"

أجاب آتان: "لا أتوقع ذلك، لكن يمكن أن يحدث."

لأن الحداد كان يعيش وحده، كانت ابنته الكبرى هي المسئولة عن المنزل. هكذا كان من الطبيعي أن تكون هي في استقبال الأخوة من بلاط الملك. أدركت جرينه سريعا أن إمير ليست هادئة جدا كما بدا منها في المساء الأول، وأنها أيضا تعرف تماما قدر الاحترام الذي تستحقه. كانت تستضيف آتان وجرينه بلطف، وتجلس إليهما، وتستمع إلى ما يحكيانه عن الصيد، تسأل، وتبتسم عندما يجاملها آتان.

فى مساء أحد الأيام قالت جرينه وهما في طريق عودتهما إلى المنزل: "أعرف لم تريد دائما أن تتوقف بورشة الحدادة."

بدت على آتان الدهشة: "فعلا!"

"أنت لا تهتم بأردان، بل تهتم بابنته. لكن هل ستلقى حظا كبيرا معها؟ إنها تعاملني بلطف مثلما تعاملك تماما."

"قد يكون ذلك مقصودا. لكنه يقودني إلى الجنون. لقد كان الأمر أسهل عليّ مع كثيرات أخريات."

لم تعرف جرينه نفسها، لم غضبت كثيرا من إجابته. فسألت: "عليك أم على ابن الملك المعظم؟"

بلع آتان ريقه، ثم ضحك، وقال: "من لم يحظ بأن يكون ابن ملك، فعليه أن يحصل على كدمة حب. تستوي بالنهاية طرق الوصول إلى الهدف، عندما يحصل المرء على متعته."

استدارت جرينه تجاهه في فزع: "متعة؟ ألا تساوي أية فتاة عندك أكثر من ذلك؟"

أجاب آتان في هدوء: "لا يا أختي الصغيرة، ليس بعد."

أدارت جرينه ظهرها له وهي منفعلة. "من الجيد أن إمير لم تسمعك. لا – بل يا للأسف!"

"لماذا يا جرينه؟ لماذا؟"

لم يتلق إجابة.

"اسمعي يا جرينه، أنت متبحرة في الحكايات القديمة، أليس كذلك؟ لا بد إذن أنك تعرفين أنه كان هناك زمان حظيت فيه النساء بنفس حقوق الرجال. كن لا يشتركن فقط في الحرب ويضربن بسيوفهن بجرأة، بل كن أيضا يخترن الرجل الذي يعجبهن ليمنحنه الحب. ولم يكن شرطا أن يكون هو نفس الشخص الذي يتزوجنه. في رأيي كان هذا زمنا جميلا، ومثلي يفكر أيضا آخرون. لم لا يصبح الأمر هكذا ثانية؟ لا بد دائما من وجود من يصنع البداية"

أوقفت جرينه 'جمال البجع'، ثم سألت: "البعض؟ هل أنت متأكد من أن إمير من ضمن هؤلاء؟"

"ما زلت لا أعرف ذلك. ولكننا سنرى."

"وإذا كانت ليست من ضمنهم؟ وإذا كانت تظن أنك تحبها؟"

"عليها أن تظن ذلك."

"وإذا كانت تظن أنك تريد الزواج بها؟"

"أتمنى ألّا تكون ساذجة إلى هذا الحد."

"وإذا ما كانت بالفعل ساذجة؟"

"يا إلهي! عندئذ لن تموت لذلك السبب!"

"أنت واثق جدا، آتان ماك كورماك. لقد وضعت لنفسك مقياسا تقيس عليه الجميع دون أن تتساءل إذا كان ذلك من حقك. هيا يا 'جمال البجع'، لنعد إلى تارا!"

"يا لها من كلمات كبيرة يا أختي الصغيرة. انتظري فقط حتى تذوقي بنفسك مرة الفاكهة الحلوة. عندها سترين، أية متعة هي، وعندها ستوافقينني. انتظري فقط"

في هذا المساء، ظلت جرينه صامتة كما لم تفعل في أي مساء من قبل. ولاحظت فنجوالا أثناء الطعام في البهو أن جرينه كانت تنتفض كلما وجه إليها الملك أو الملكة الكلمة. بدت جرينه وكأن تفكيرها عالق بمكان آخر. حاولت جاهدة أن تتتبع الحديث، لكنها كانت تعود مرة أخرى لتجهمها.

عندما تحدث الملك مع آتان، مالت عليها الملكة وسألتها: "هل أنت مريضة يا جرينه؟"

"لا يا أمي، أنا فقط نعسانة."

أومأت الملكة. "إذن اذهبي لتنامي."

ذهبت جرينه وفنجوالا إلى برج السيدات.

ما إن أغلقتا باب الغرفة خلفهما حتى أزاحت فنجوالا الغطاء عن فراش جرينه، ونفشت الوسادة، ثم رمت قُرمة خشبٍ على النار.

قالت بصوت منخفض: "هناك أيام حسنة وأخرى سيئة. يود المرء التمسك بالأولى، بينما يفضل الهروب من الأخرى. لكن كليهما يمر. وحينما يدرك المرء ذلك، يشعر في الأيام الحسنة بسعادة مضاعفة، ونقل تعاسته في الأيام الأخرى. – هل السبب هو رجل يا جرينه؟"

"نعم، لكن ليس كما تظنين يا آلا."

"أتعجب إذن من أن يبدو عليك كل هذا الانهزام"

"آلا، أنا لم أعد أجد طريقي. كان لا بد أن أتحدث إليك منذ وقت طويل. آلا، طالما ظننت أن الحب ليس موجودا فقط من أجل المتعة، وأنه ليس مجرد مشاركة في الفراش. آلا، لا أستطيع أن أشرح ما كنت أتخيل، لكني أعرف شيئا واحدا: وهو أنني لم أكن أتخيله كما يتحدث عنه آتان وكما يتعامل معه. وأخشى أن أقع في حب رجل في مثل طباع آتان. آلا، لقد تخيلت أن في الحب لا أحد يسأل عن السعادة أو التعاسة، لا الرجل ولا المرأة. لا أستطيع أن أتخيله إلا بهذا الشكل، ولا أريده بشكل آخر"

سقطت جرينه على الفراش ووجهها شديد الاحمرار. وجلست فنجوالا القرفصاء عند موضع قدم جرينه. كانت عيناها كبيرتين

ومضيئتين كما لم تكن قط، ولأول مرة ترى جرينه أنهما بلون العسل. لم يحدث قط أن كانت فنجوالا بعيدة إلى هذا الحد، رغم أنها تجلس على مسافة قريبة جدا منها. فقط احتفظ صوتها بنفس النبرة الرقيقة التي طالما ميزته، وذلك حين قالت: "لا شيء في الحياة الفانية أكثر ندرة من الحب كما تريدينه يا جرينه. ولو كان الأمر مختلفا، لما تقابلنا أبدا. اختار أبي آنجوس، سيد مملكة الجان اسمي بعناية عندما أرسلني إلى هنا. فمن المفترض أن يذكّر الناس بأن أولاد الملك لير ما زالوا مسحورين. كانوا ثلاثة أبناء وابنة واحدة اسمها فنجوالا. تحولوا إلى بجع بسبب كراهية امرأة - والحب بين رجل وامرأة سوف يخلصهم، الحب كما تريدينه أنت. لكن لأنه نادر جدا، فإن أبناء الملك لير لا يزالون في انتظار خلاصهم منذ ثمانمائة عام."

لم يكن من الغريب أن يتوجه آتان وحده إلى الصيد في صباح أحد الأيام. حين علمت جرينه ذلك من رئيس الإصطبل، قالت بسرعة: "نعم، صحيح، قد كنا اتفقنا على ذلك. أنا فقط نسيت. تستطيع أن تضع السرج على 'جمال البجع'، سوف أركبه اليوم."

"سرجك في الورشة يا جرينه. تعلمين أن الخياطة في أعلى السرج قد تفززت. وأنا لم أكن أعرف أنك تريدين الركوب اليوم. سوف أرسل في طلبه."

"سيان بين أن أنتظر هنا أو أنتظر هناك" قالت جرينه ذلك وقادت 'جمال البجع' بنفسها إلى ورشة السروج.

"انتظري أيتها الفرس الطيبة" بعد أن قالت جرينه ذلك ربتت على رقبة 'جمال البجع' ومسحت بيدها على أنفه، فحرك الحصان شفتيه. "نعم يا 'جمال البجع'، اليوم بدون عربة. وويله إنْ كان يصطاد بجعة، عندها سيعرفني جيدا! سأريه ما كانت نساء الأزمنة القديمة اللاتي يحلم بهن يفعلن" ثم دخلت إلى الورشة.

كان لوتار، الابن الأصغر لصانع السروج، وحده.

سألته جرينه: "هل والدك ليس موجودا؟"

"لا أبي ولا أخي. ولكن إذا كنت تريدين سرجك يا ابنة الملك، أستطيع أن أعطيه لك" لم يكن ينظر إليها أثناء حديثه معها، بل استمر في خياطة كسوة حصان."

"أنا هنا بسبب السرج. تستطيع أن تحمله لي حتى المنزل. لكن -"، خطرتْ لجرينه فجأة هذه الفكرة، وكان ذلك غريبا. مالت على المنضدة ولم تستعجل في الانصراف. "أودّ أن أسألك عن شيء ما. لماذا تكون دائما متجهما كلما رأيتك؟" أنا لا أراك كثيرا، لكني لم أرك أبدا تتصرف بلطف."

"لا أحب العمل في ورشة السروج."

"لماذا إذن لم تعمل بمهنة أخرى؟ ربما بصناعة العربات الخشبية أو بالحدادة؟"

"هذا أو ذاك، ما الذي كان سيتغير كثيرا؟ في كلتا الحالتين سيتوجب عليّ العمل في ورشة، وأنا طالما وددت أن أصبح من رجال فين. لكني لا أستطيع ذلك لأن والدي ليس من الأحرار. ومهما ظل يعمل ليشتري حريته، فلن يحصل على المال الكافي لهذا. بالإضافة إلى ذلك فإنه لا يريد. ولا يستطيع أن يفهم أن ذلك يزيد من سخطي. أنت أيضا لن تستطيعي فهم ذلك. لكننى لم أكن لأتفوه بكلمة عن هذا الأمر لو أنك لم تسأليني."

سألته جرينه: "لماذا تظن أننى لا أستطيع أن أفهمك؟"

"لأن بالنسبة لك ولأمثالك كل شيء متاح بدون عناء وبدون إجهاد للذهن. أنتم ولدتم داخل السعادة ذاتها، ولا شيء مهم أمامكم"

حتى تلك اللحظة لم يكن صانع السروج قد نظر إلى جرينه. ترددت جرينه في أن تصيح في وجهه أو لا. في النهاية قالت له: "أخالني أقف أمام الملك المعظم في محاكمة، بينما أردت فقط أن أحضر سرجي. هل كانت لي حرية الاختيار في أن أكون ابنة ملك؟"

لا أحد يستطيع أن يختار الطبقة التي يولد فيها. وفي يوم ما يحاول المرء أن يتَوَاءَم مع الوضع. لكن حين يتم إحباط كل ذرة سعادة قد تلوح له.."

سألته جرينه: "أية سعادة قمت أنا بإحباطها لك؟"

"ليس أنتِ."

"لماذا إذن توجه لي الاتهامات؟"

"لا يأتي أخوك إلى هنا."

"تتحدث عن آتان؟"

"نعم، عن ابن الملك المعظم. من الواضح جدا أنه وجد مع إمير سعادة أكبر مما وجدت أنا."

احتاجت جرينه إلى برهة حتى تتمالك نفسها. "هل يتعلق الأمر بإمير؟ بابنة أردان؟" قالت ذلك فقط لتكسب مزيدا من الوقت. بعدها أكملت حديثها: "إذا كانت إمير تمنح حبها طبقا للطبقة التي ينتمي إليها الرجل، فعندها يكون في اتهامك لأخي ظلم كبير له!"

"ليست تلك إلا خطبا جميلة يا ابنة الملك سبق وأن سمعتها كلها: ما قيمة فتاة تتركك فقط لأن ابن الملك يجاملها! ولكن أية فتاة تلك التي لن تتأثر بذلك، هذا هو سؤالي لك!"

"لا أعلم إن كنت على حق"، قالت جرينه ذلك وانصرفت. كانت تنوي أن تبحث عن أخيها. أما الآن فلم يعد ذهنها مشغولا بذلك.

"لنذهب إلى البجع"، قالت ذلك للحصان وجرت به. وعند البحيرة أخذت تبحث عن الصخرة التي كانت تجلس عليها مع فنجوالا عندما كانت لا تزال فتاة صغيرة. كانت هناك ثلاث بجعات تسبحن فوق المياه. اقتربن من الشاطئ وبقين بالقرب من جرينه.

قالت جرينه: "ليس معي خبز. لقد نسيته اليوم. أين البجعات الأخريات؟ هل طرن بعيدا؟" نظرت جرينه إلى السماء، وأيضا إلى الغابة الصغيرة على الضفة الأخرى – لم يكن هناك شيء. لكن خلف البوص المنتشر على الجزيرة هناك كان شيء يتحرك. كان يلمع وسط العيدان، ويشوب لمعانه اللون الأبيض. أومأت جرينه وقالت: "إنها تحتضن البيض. نعم، بالطبع."

شرب 'جمال البجع' من الماء الصافي، وظلت جرينه تشاهده. كان تفكيرها منشغلا بابن صانع السروج، وبكل ما قاله.. عن مدى صعوبة الحياة عليه، وعن عدم وجود من يستطيع مساعدته. لابد أنه يحب إمير كثيرا لدرجة تجعله يبحث عن الذنب عند شخص آخر. لكنه وحده في حبه.

كان البجع قد اقترب كثيرا لدرجة أن جرينه كانت تستطيع النظر في عيونه الثابتة. قالت جرينه: "الآن أفهم لِمَ أبناء الملك لير لا يزالون بجعا"

في قلعة ألموين تُوفيت في ذلك اليوم زوجة فين ماك كومهال. وقد جاء نبأ وفاتها إلى بلاط ملك تارا عن طريق أحد أعضاء فرقة الموسيقى العسكرية الذي كان يتجول لينشر الخبر. لم يكن في استطاعة أحد التنبؤ بتبعات تلك الوفاة، وخاصة جرينه، أكثر من سيكون لذلك الأمر تأثير عليه.

الهـــــروب

إلى حين أن جاء اليوم الذي غيّر مجرى حياة جرينه حدثت ثلاثة أمور جعلتها تتأمل طويلا:

في صباح عيد البيالتين قادت عربتها ومعها فنجوالا إلى البحيرة. فمثل كل الفتيات كانت تريد انتظار شروق الشمس عند الماء في يوم تحول الشمس الصيفى. لكنها لم تذهب إلى الرافد الصغير المتفرع من نهر البوينه، حيث كانت تلتقي الفتيات الأخريات. فقد أرادت السباحة في البحيرة بالقرب من البجع.

كان 'جمال البجع' يجري بخفة أمام العربة. بدا وكأن الحصان يشعر بنفس السعادة التي كانت تشعر بها جرينه، ذلك لأنه لم يحدث كثيرا أن جرَيا وسط العشب اللين في المروج المزهرة.

جلست جرينه مع فنجوالا في العربة متأبطة ذراعها، وأخذت تغنى:

"هوو حبيبي، هييه حبيبي،

حبيبى رجل قوى.

هوو حبيبي، هييه حبيبي

الكل ينظر إلى حبيبي!"

عندما وصلنا إلى البحيرة، كان الخط الذهبي الممتد في السماء الشرقية قد تحول إلى أحمر قان.

"اسرعي يا آلا، اسرعي! ساعديني، كاد الوقت أن يحين!" قفزت جرينه بجملة واحدة إلى خارج العربة وشدت إبزيم معطفها فسقط في رمال الشاطئ، وتلاه حزام القميص المصنوع من جلد الغزال، ثم جاء القميص أخيرا. جذبت فنجوالا أيضا المشبك سريعا من شعر جرينه.

قالت جرينه وهي تضم ذراعيها إلى جسدها العاري وتحاول منع أسنانها من الاصطكاك: "هوو، أشعر بالبرد!" وعندما تجمع الضوء الأحمر في السماء على هيئة كرة نظرتْ جرينه إلى داخل المياه وقد بدأ لونها يميل ببطء شديد إلى الحمرة التي أخذت تشتد تدريجيا. مالت جرينه بجسدها إلى الأمام: متى ستنعكس كرة الشمس على الماء؟ متى سترقص بداخلها؟

فجأة نسيت جرينه ما كانت تنتظر. نظرت صوبها من داخل الماء فتاة لها عينان واسعتان، لونهما فاتح، ولها جبين عال، وحاجبان منسابان، لونهما داكن، وطاقتا أنف صغيرتان، وشفاه ممتلئة، وذقن حادة. ينساب حول وجهها وينسدل على كتفيها شعر طويل أشقر، لا يغطي نهديها الصغيرين المستديرين. نظرت جرينه إلى الفتاة وهي مشدوهة، وأخذت تفكر: ما أجملها، لا يمكن إلا أن تكون جنية. ابتسمت جرينه لها، فردت الفتاة في الماء الابتسامة بمثلها. "لماذا أتيت؟ ماذا تريدين مني؟ اخرجي من الماء، أود التحدث إليك."

كانت الفتاة تحرك شفتيها في نفس الوقت، ثم سكتت. لوحت لها جرينه بيدها، فلوحت الفتاة أيضا في ذات اللحظة.

صاحت جرينه: "آلا! آلا، هذا أنا! آلا، هل أبدو الآن حقا هكذا؟"

"نعم، جرينه، أنت جميلة جدا."

من فرط السعادة لم يخطر ببال جرينه شيء آخر إلا أن تغطس في الماء البارد. في تلك اللحظة ظهرت الشمس كاملة في الأفق، ترقص مثل كرة النار على أمواج البحيرة.

أما الأمر الثاني الذي حدث لجرينه وجعلها تتأمل، فقد كان في مساء عيد البيالتين، حين تم إشعال النار على المرج الممتد أمام قلعة الملك. كان الشباب القادمون من المزارع المحيطة بتارا يحرقون رجال القش العملاقة، وكانت جرينه بين الشباب الذين تجمعوا ورقصوا حول النار. كان الملك قد أمر بمرور برميل كبير من الخمر على المرج، كما كان يتم شواء ثور وخنزيرين على الأسياخ، بينما عزفت الموسيقى.

وقف آتان أيضا عند النار. لكن جرينه لم تهتم به؛ لأن الراقصين كانوا يحيطون بها من كل جهة، ويتنافسون على مراقصة ابنة الملك الجميلة. عندما اتخذت المجموعة الأولى وضع الاستعداد للقفز من فوق النار، لمجت جرينه من بينهم لوتار، ابن صانع السروج، ففرحت بمجيئه، وبعدم إفساحه المجال أمام آتان، وكذلك برقصه مع الآخرين واستمتاعه بذلك. ربما يكون هو أيضا قد أدرك حكمة آلا بألا يبالغ الإنسان في شعوره بالتعاسة في الأيام السيئة، لأنها تمر وتمضي تماما مثل الأيام الحسنة.

فزعت جرينه حين عبر لوتار بوثبة عنيفة من فوق النار وسقط بين الفتيات اللاتي كن يصحن. استقر لوتار عند إمير التي تراجعت إلى الوراء وحاولت الاختفاء في الزحام، فاندفع لوتار خلفها

دون أن ينتبه إليهما أحد. فقد كانت أعين الجميع منصبة على الذين يقفزون من فوق النار- فيما عدا جرينه، التي شقت لنفسها طريقا وسط الآخرين. غابت إمير عن أعينها مرتين. بعدها رأتها واقفة مع لوتار، الذي كان يلح عليها في الحديث. لم تستطع جرينه أن تفسر ما كان يقول لها؛ لأنه كان موجها ظهره ناحيتها. لكنها سمعت إجابات إمير عليه.

"نعم، أنت على حق. أنا لم آتِ إلى هنا من أجلك."

" _ _ _ "

"لا بد ألّا يشغلك ذلك. من حقي أن أحب من أريد، وأنتِ لست من أحب."

" _ _ _"

"نعم إذن. ولكي تتوقف عن صنع الآمال، عليك أن تعلم: ابن الملك المعظم سوف يوصلني إلى المنزل بعربتي الخاصة."

في تلك اللحظة أمسك شخص بذراع جرينه.

"لا يليق بك التنصت يا شقيقتي الصغيرة. هل تعلمتِ ذلك من خادمتك؟"

أزاحت جرينه ذراع آتان عنها، وهمست له: "أنت أخذت منه إمير"

"أخذتها؟ هي لم تكن أبدا له."

"إنه يحبها، وسينتقم لنفسه."

"أتمنى أن يحاول ذلك."

"هل ستصطحب إمير إلى منزلها بعربتها؟"

أومأ آتان.

"وكيف ستعود؟"

"طلبت من سائقي أن يحضر غدا باكرا."

أراد آتان أن يتركها، لكنها ظلت بجانبه، وهو يتجه ناحية لوتار وإمير.

تعلقت جرينه بذراع لوتار وقالت له: "تعال يا لوتار. هيا نذهب لنرقص."

رفض لوتار أن يتحرك، وأراد أن يقف في طريق آتان، لكن جرينه جذبته بقوة.

"سوف يتحمل عواقب ما يفعل! سيدفع ثمن ذلك! سأقطع رأسه من أجل ذلك!"

تركته جرينه يثور كما يشاء. وحين لم يعد لديه ما يقوله، سألته: "هل ما زلت تود الانضمام إلى رجال فين؟ إذا كنت تريد ذلك، فستصبح حرا في الغد. سأتحدث إلى الملك"

"إنك تقولين ذلك لتهدئيني. لن أصبح حرا أبدا."

"لقد أعطتكَ ابنة الملك كلمتها"

انضم لوتار إلى رجال فين، دون أن يعرف شيئا عن المناقشة التي دارت بين الملك وجرينه. لكن جرينه لم تكن قد تغلبت على شدة أبيها بسهولة. فقد حصلت على حرية صانع السروج الصغير بأن قالت لوالدها: "إذن سأرتكب خطأ وأساعده على الهرب"

على مدار شهر كامل لم يتحدث الملك لها بكلمة واحدة. كانت كثيرا ما تسأل نفسها: هل تخطيت حدودي؟ هل طلبت منه أكثر من اللازم؟ - وتدريجيا بدأت تدرك أن الملك هو أول من عليه الالتزام بالقوانين التي يصدرها. -

ثم جاء الأمر الثالث الذي دفع جرينه إلى التفكير مليا يوم عيد ميلادها السابع عشر. كانت قد تمنت أن تحصل على معطف أحمر من القطيفة، له إبزيمان على هيئة بجعتين. وقد هيأت الملكة كل ما

من شأنه أن يحقق لها أمنيتها. فعلى مدار أشهر كاملة كان التجار، والخيّاط، والصائغ يترددون على القلعة.

وفي يوم عيد ميلاد جرينه كان المعطف موضوعا على المقعد في غرفة المعيشة. انبهرت جرينه بشدة من لونه الساطع ومن ثناياه الناعمة، مما جعلها تتحسسه بحذر بأطراف أصابعها. لم تجرؤ على لمسه، فاضطرت والدتها أن تضعه حول كتفيها. عندئذ رأت جرينه الإبزيمين: بجعتين ذهبيتين سابحتين، تميلان برقبتيهما اللتين تتحركان في انسيابٍ تامٍ إلى بعضهما البعض.

لم تستطع جرينه أن تتحكم في نفسها من فرط السعادة. فردت ذراعيها وأخذت تدور في حلقات. وما أن أعطتها فنجوالا أيضا باقة من زهر البرسيم ذي الأربع وريقات حتى بلغت سعادتها حد الجنون. خرجت مسرعة إلى الشرفة، ثم عادت ثانيةً إلى الداخل، دارت مع أمها عدة مرات، رفعت ماتشا من جلستها، رقصت مع فنجوالا، نزلت السلم مسرعة، اندفعت راكضة إلى داخل القاعة، احتضنت أباها حتى كادت تحبس عنه الهواء، وفي اللحظة التالية كانت قد اختفت مجددا.

بعد ذلك بقليل قادت جرينه عربتها إلى خارج القلعة مع فنجوالا وماتشا اللتين أدركتا أنها لن تكونَ نزهة هادئة. تشبثت ماتشا بيديها الاثنتين بحافة العربة، ثم قالت وهي تلهث:

"تعقلي يا جرينه، فأنا كسيدة عجوز لا أستطيع تحمل كل هذه السرعة! جرينه، سوف أقفز على الفور من العربة إن... جرينه، أشعر بأن رأسي سيسقط مني!"

كانت فنجوالا وجرينه تضحكان بشدة؛ حتى أن ماتشا استسلمت في النهاية لقدرها. لكنها زفرت من الأعماق في طريق العودة إلى القلعة وقالت: "لن أركب معكِ ثانية!"

عند المساء أرادت جرينه أن تصطحب والدتها إلى الطعام. صعدت السلم. كان الباب المؤدي إلى غرفة السيدات مفتوحا، وكذلك الحال بالنسبة للنافذة المقابلة له. أرادت جرينه أن تدخل، لكن عندها سمعت والدتها تقول: "إلى متى ستظل عندنا؟ هي الآن في السابعة عشرة من عمرها. هل تعلمين يا ماتشا أنني في الماضي، حين كنت في نفس السن، عدت من مدرسة الشعراء إلى المنزل. هل تعلمين أيضا، كم كان جميلا ذلك الرجل الذي أعادني إلى المنزل؟ هل تعلمين كيف كان يعزف على القيثارة، وكم هو عدد الأغنيات التي كان يستطيع عزفها؟" سكتتْ الأم لوهلة قبل أن تكمل حديثها: "تعرفين أيضا، كيف كان الأمر عندما أعاده والدي إلى مدرسة الشعراء؛ لأن كورماك ماك آرت أراد الزواج بي؟ لم يهتم أحد أبدا برأيي. آه يا ماتشا، كم أتمنى أن تصبح ابنتي جرينه سعيدة."

لم تر جرينه وجه أمها، فقد كانت الملكة جالسة باتجاه النافذة. لكنها كانت ترى شعرها، ولاحظت فجأة أنه لم يعد أشقر مثل شعرها هي. صارت تشوبه خطوط بيضاء لم تلحظها أبدا من قبل.

لم تستطع جرينه فهم ما قالته والدتها بسرعة. كانت والدتها بالنسبة لها دائما أما فقط. لم تفكر قط بأنها كانت أيضا في يوم من الأيام فتاة صغيرة. ولم يكن ليخطر ببالها أبدا أن يكون في حياة أمها في أي وقت من الأوقات رجل آخر غير أبيها. فأمها وأبوها ينتميان إلى بعضهما البعض، منذ البداية، ودائما، وطالما استطاعت جرينه أن تفكر، وحتى تلك الساعة.

أصبحت أمها الآن – إلى جانب كونها أما – إنسانةً أخرى. ربما صديقة؟ أو فتاة صغيرة مثل جرينه نفسها. أحبت رجلا، واضطرت أن تتركه يرحل لتتزوج ملك مايد. ثم أنجبت ابنا، وبعده ابنة. ترى هل كانت سعيدة؟ وهل هي سعيدة الآن؟ لم تسأل جرينه عن ذلك أبدا فيما قبل.

كان الضوء الذهبي للنهار الذي شارف على الانتهاء ساطعا أمام النافذة الصغيرة. اجتازت جرينه الباب، ووضعت ذراعيها من الخلف حول كتفي أمها، وضمتها بشدة قدر ما استطاعت.

كان الصيف قد حل ضيفا على المروج والمراعى حول تارا. امتلأت الأشجار وأسوار الشجيرات المتشابكة بالورق الكثيف، كما انبعث الأريج من أشجار الزيزفون، وأثمرت شجيرات البندق ثمارا في حجم اللؤلؤ. في المراعي كانت الأمهار تلعب، وبين قطعان البقر كان عدد العجول الصغيرة التي تهرول وراء الأبقار البدينة يوميا في تزايد. كذلك تكدست تلال من صوف الخراف بجوار أكواخ رعاة الأغنام، فيما كان رعاة الخنازير يراقبون في سعادة الخنازير الصغيرة التي لا حصر لها وهي تصرصر.

شهدت تلك الفترة الحافلة من الصيف الاستعراض العسكري السنوي الذي كان يقيمه الملك في الميدان حيث تجري المباريات. تم جمع كل محاربي تارا، مدججين بالسيوف والرماح. كما تم نصب عربات القتال التي أمر الملك كورماك ماك آرت بأن تعبر كلها من أمامه.

وهنا أخبرته الحراسة الموجودة على البرج بأن هناك عشر عربات تتجه صوب قلعة الملك، عشر عربات تتحرك من جهة الجنوب، واحدة تلو الأخرى.

قال كورماك "أيا ما كان الهدف من مجيئها.. لم تكن لتختار يوما أفضل من هذا" ومع ذلك أرسل إليها فارسا.

حين عاد ذلك الفارس أخبر الملك ما يلي: "إنها عربات تابعة لرجال فين. فين ماك كومهال نفسه فيها، ويجلس بجانبه ابنه أويسين وقائده الأول ديرميد."

رد عليه الملك بقوله: "لقد جئت بنبأ طيب! فين الذي يحظى بكل تقدير واحترام، والذي هو عندي في منزلة صديق عزيز قادم بصحبة أفضل رجاله."

عند المساء كانت عربة فين هي الأولى التي عبرت بوابة قلعة الملك، تجرها أربعة أحصنة برشاء. وقد نال العرض العسكري الذي لزم على فين المرور به إعجابه. فهو محارب منذ نعومة أظافره، ولا شيء آخر كان من الممكن أن يسعده أكثر من ذلك.

كان فين قد قام بتقصير شعره الرمادي الطويل وبتشذيب ذقنه البيضاء. استقبله الملك المعظم عند البوابة الثالثة، ومد إليه يده ليساعده على النزول من العربة، ثم قاده إلى داخل قاعة الاستقبال.

وجه ديرميد حديثه لأويسين قائلا: "إنني أرى قلعة الملك لأول مرة. لم أتخيلها بهذه الضخامة وبهذه الروعة."

رد أويسين: "إنه مقر الملوك العظام لبلادنا."

أيضا في برج السيدات شاع خبر مجيء فين مصطحبا معه أويسين وديرميد. حتى تلك الساعة لم يكن أحد يعرف سبب قدوم فين. لكن لابد وأنه أمر مهم، وإلّا ما كان أتى في هذا الموكب المهيب. لابد وأنه أحضر معه أيضا كاهنه.

قالت ماتشا: "عندما يأتي فين، فلابد أن يكون الأمر متعلقا بقتال. وأقول لكم إنه لا يجرؤ على ذلك وحده، ويريد أن يقنع الملك بأن يعطيه محاربين، لا شيء سوى ذلك.. سوف ترون! لن يكون ذلك أمرا سيئا على الإطلاق؛ لأن في تلك الحالة سوف ينشغل آتان بشيء آخر غير علاقاته العاطفية المتكررة"

قالت فنجوالا: "لكن فين أتى بابنه."

وقالت جرينه: "وديرميد، ديرميد ذي كدمة الحب"

ضحكت ماتشا وقالت: "كدمة الحب! حين أسمع شيئا مثل ذلك! لابد أنه ديك أهوج مثل آتان! – لا تشرئبي بعنقك من النافذة يا جرينه، فلن تستطيعي رؤيته في جميع الأحوال"

ردت جرينه: "ترى كيف يمكن أن يكون شكل أويسين؟ هل لازال كريما مثلما كان في السابق عندما أهداني ‘جمال البجع’؟"

جذبت ماتشا جرينه إلى الداخل وهي تقول لها: "بالتأكيد لا يمكن رؤية ذلك من النافذة! عليك فعلا أن تتحملي الانتظار"

أدركت جرينه مدى أهمية زيارة فين عندما جاء والدها في وقت متأخر من المساء إلى برج السيدات. كانت جرينه مستلقية بكامل ملابسها على الفراش حينما سمعته آتيا. فجأة تملكها توتر شديد جعلها غير قادرة على القيام والتوجه إليه.

قال والدها: "زيارة فين تتعلق بك يا جرينه. لقد أتى طالبا الزواج."

سألت: "طالبا الزواج؟ طالبا الزواج؟"

"لقد فاجأك الأمر مثلي، لذلك لا تقرري الآن. فكري به مليا في هذه الليلة، ثم ارسلي لي خادمتك غدا باكرا. وحينها لن تكون كلمتك فقط هي الفاصلة، وإنما كلمتي أيضا. إذا قلتِ 'نعم'، يكون خيرا. وإذا قلتِ 'لا' فسينسحب فين وكأن شيئا لم يكن، ولن يعرف أحد أي شيء عن سبب وجوده هنا. لذلك لا يجب أن تظهري طالما لم تقرري بعد"

"لكنه لم يرني منذ سنوات عديدة، وكذلك أنا."

"لقد انتشر في ارين كلها – ولا أعرف كيف – كيف تبدين. وهو –" تردد الملك قليلا، "وهو إذن رجل جدير بك. لكن لا يجب أن تقولي له ذلك أبدا"

"هل تراه مناسبا يا أبي؟"

"نعم."

"حسنا، سأرسل لك فنجوالا في الغد."

كانت هذه الليلة التي وجب على جرينه أن تقرر فيها، دافئة ومضيئة، امتلأت فيها السماء بالنجوم. ظلت جرينه قلقة، تتحرك وتدور، كما تكرر خروجها إلى الشرفة حيث كانت تميل على المسند وتنصت، وكأن السكون سيسر لها بكلمة أو بنصيحة.

"فقط لو أعرف إن كنت سأستطيع أن أحبه يا آلا، أحبه كما أريد. لو كنت فقط أعرف إن كان لايزال طيبا ومتفهما مثلما كان في السابق حين أهداني 'جمال البجع'. ولو فقط أعرف كيف يبدو الآن!"

أجابتها فنجوالا: "عما إذا كنت ستستطيعين أن تحبينه كما تريدين، فهذا ما لن تعرفيه أيضا غدا حتى بعد أن تكوني قد رأيته. أحيانا يأتي ذلك بعد فترة طويلة."

أما ماتشا فقالت: "وبالنسبة لحقيقته، فهذا ما لا يستطيع المرء استنباطه مباشرة من وجه أي شخص. هناك رجال كثيرون يتميزون بالجمال، لكن ماذا يخفون وراء ذلك؟ آه، هذا شيء معروف. لكن إذا سألتيني عن رأيي، فأنا أرى أويسين مناسبا. إن تارا لا تبعد كثيرا

عن قلعة ألموين، تستطيعين أن تركبي ‘جمال البجع’ في أى وقت وتأتي بسرعة إلى منزلك. وفيما يتعلق بنا، أنا وأمك، فنحن أيضا نستطيع أن نأتي إليك."

ردت جرينه قائلة: ليس بسبب ذلك أشعر بالخوف. فأنا سأصطحب معي آلا. – أين تكون أمي كل هذا الوقت؟ لو كنت أستطيع على الأقل أن أسألها عن شكله."

في تلك الليلة لم تأتِ الملكة إلى برج السيدات، فقد كانت حتى ساعات الصباح تلح على الملك بالقول.

قالت له: "إذا كانت تلك الزيجة ستسفر في يوم ما عن تعاسة، فإنني أتوقع منك يا كورماك ماك آرت أن تقف إلى جانب جرينه"

"ما نوع التعاسة التي يمكن أن تحدث؟ تستطيع جرينه أن تقرر بنفسها. بالإضافة إلى ذلك فإنه أفضل رجل في بلادنا. ما كنت لأفضل أحدا عليه. كما أنني أحتاج إليه، وإلى العلاقة الطيبة التي تربطنا."

اعترضت الملكة قائلة: "وهو يستغل ذلك! لقد كانت له ثلاث زوجات فيما قبل، والآن يأتي الدور على صغيرتنا جرينه. ربما تحتاجه أنتَ، أما جرينه فلا" كانت هذه هي آخر كلمة للملكة.

اشتعلت النيران في مواقد قاعة الاحتفالات بصورة أقوى مما كانت عليه في عيد الساموين، كما بلغ عدد الشعلات المثبتة في القاعة الضعف. تزاحم أناس كثيرون أمام باب القاعة. دفعهم الفضول بعدما انتشر في البيوت مثل الفيضان العارم خبر قدوم فين طالبا الزواج!

"جاء طلبا للزواج؟ فين؟"

"من أجل ولده بالطبع، من غيره!"

كان هذا هو الهدف من وراء الموكب العظيم، والعربات الفارهة التي تجرها أحصنة مزينة بكسوات ثمينة، والحاشية التي صاحبت فين. فهذا هو ما يليق بمن يأتي لخطبة ابنة الملك كورماك!

كان الأشخاص الفضوليون الواقفون أمام الباب يريدون رؤية أويسين، فلم يعد أحد يتذكره. هم يريدون الآن معرفة شكل الرجل الذي سيحظى بجرينه. ترى أي شاب يكون أويسين؟ هل هو الشاب النحيف ذو الشعر البنيّ الناعم الذي يجلس بجوار فين؟ أم أنه الآخر الذي يجلس في مواجهته، ذلك الشاب الطويل ذو الشعر الأسود المجعد؟

"اصمتوا!"

"هدوء، جرينه آتية!"

اخترقت جرينه صفوف الأشخاص الفضوليين، وهي ممسكة بيد الملكة، وتوجهتا إلى داخل القاعة. كانت تلبس معطفها الأحمر وتضع التاج الذهبي العريض على جبينها، وكان شعرها المنسدل مزينا باللآلئ اللامعة والكرات الذهبية. أما ذراعاها، فقد زينتها الأساور الذهبية التي بلغت المرفقين، في حين زينت صدرها باقة من زهر البرسيم ذي الأربع ورقات، ثبتت في مشبك المعطف الذي كان على هيئة بجعة. صمت كل من القاعة أثناء مرورها مع والدتها عبر المدخل الموجود في المنتصف. وقد تبعتهما فنجوالا وماتشا وجميع الخادمات اللاتي كن يعملن في برج السيدات.

ابتسمت جرينه دون أن تعرف ما هي مقبلة عليه. كانت تعرف فقط أن هناك أربعين رجلا لا تعرفهم يرمقونها الآن بنظراتهم، ولكن دون أن ترى ذلك بنفسها. كانت ترى فقط والدها في نهاية الطاولة، وبجانبه مقعدان شاغران اتجهت صوبهما.

أسَرّت ماتشا في أذن فنجوالا: "الناحية اليسرى تجلب سوء الحظ! كيف يمكن للملك أن يفعل شيئا كهذا!؟"

فجأة هب رجال فين واقفين، وهتفوا: "فلتحيا جرينه! تحيا! تحيا! تحيا! فلتحيا ابنة الملك كورماك! تحيا! تحيا! تحيا!"

اتخذت الملكة مقعدا إلى جانب الملك، أما جرينه فقد جلست إلى جانبها. أثناء ضبطها لثنايا معطفها ألقت سريعا نظرة على من يجلس بجانب والدها، فاكتشفت أنه فين. لو لم يكن كل الحاضرين يحدقون بي هكذا! كان على رجال قلعة الملك على الأقل ألّا يفعلوا ذلك، فهم بالتأكيد يعرفون كيف أبدو. ومع هذا توجد بعض الجوانب الحسنة في ذلك، هناك على الأقل بعض الوجوه المألوفة لدى بينهم.

أمر الملك بإحضار النبيذ، وتم تقديم كأس لكل فرد من الحضور. بعدها تم افتتاح مأدبة الحفل، وحينئذٍ شعرت جرينه بالارتياح.. أخيرا سيكون هناك شيء آخر يفعلونه غير التحديق بي. الآن سأدور ببصري. أين هو أويسين؟ لابد أنه جالس على مقربة مني. اشرأبت جرينه بعنقها. أيهم أويسين؟ لم تكن قادرة على تناول الطعام.. كانت فقط تميل على الطبق، في حين تنتقل عيناها من شخص لآخر بحثا عنه. كان أحد رجال فين الجالسين في مواجهتها يراقبها، وعندما التقت عيناهما لم تستطع أن تبتعد عن بعضها البعض. أحست جرينه كيف صعدت الحمرة من عنقها إلى وجهها، ومع ذلك لم تستطع أن تصرف نظرها عنه. كانت العينان اللتان تنظران إليها داكنة، وكانت الأنف دقيقة، وكاد الحاجبان أن يلتصقا ببعضهما البعض. انسدل الشعر الأسود على الكتفين في خصلات

مجعدة، كما كانت كل الذقن سوداء. أويسين! لابد أنه أويسين! لقد رتب والدي الأمر على نحو يسمح بأن ينظر كل منا للآخر. إنه ينظر إليّ ثانية. سرت رعشة إلى يديّ جرينه. إنه الفيضان ! العاصفة! النيران! كم كنت محقة حين قلت نعم.

"لابد أن تأكلي شيئا يا ابنة الملك."

انتفضت جرينه لترى بجانبها وجها به تجاعيد توحي ملامحة بالطيبة.

"نعم، أنت على حق. ما اسمك؟"

"أنا دواناخ، كاهن فين. اللحم يذوب في الفم، ومذاقه طيب جدا. لابد لي أن أتغذى قبل أن أغني أغنية المدح لوالدك، الملك العظيم. انظري كيف يستمتع الآخرون بمذاقه، لم لا تستمتعين أنت أيضا به، يا ابنة الملك الجميلة؟"

ردت جرينه قائلة: "نعم، لم أستمتع أنا به" تناولت قطعة من اللحم وبدأت تمضغها. وحين اعتقدت أن أحدا لا يراقبها فتحت حديثا مع الكاهن. سألت عن الرحلة، وعن قلعة ألموين، وفي النهاية سألت: "هل تستطيع أن تخبرني دون أن تلفت انتباه الحاضرين من كل هؤلاء الرجال؟"

أومأ دواناخ. "الرجل ذو الحواف الأربع الذي يجلس في نهاية الطاولة هو جول، وإلى جانبه يجلس كايلت وهو رامٍ قويّ للرماح. أما هذا الذي يرفع كأسه الآن، فهو لوغايت، ابن أخي فين."

سألت جرينه: "وأين يجلس أويسين؟"

"بجانب والده فين."

"إذن، هذا هو أويسين" قالتْ ذلك، ثم تماسكتْ وسألت: "ولكن من ذلك الذي يجلس هناك؟"

"تقصدين ذلك الذي تضيء وجهه النار؟ ذا الشعر الأسود الذي يجلس في مواجهة خطيبك؟ هذا هو قائدنا الأول، ديرميد."

"آه، هذا هو ديرميد. لكنه يجلس في مواجهة فين."

"نعم، صحيح. فين، خطيبك."

قالت جرينه: "فين" ثم كررت ذلك مرة أخرى: "فين."

أغمضت عينيها ومالت إلى الخلف. ذلك الرجل الجالس هناك، ذو الشعر الرمادي، والذقن البيضاء المشذبة، الذي يكبر والدي سنا، هذا هو خطيبي. وأنا التي ظننته طالبا مني الزواج بأويسين طبقا للعادات. على الجانب الطولي من الطاولة كان يجلس آتان وكان ينظر إليها. هل كانت ابتسامته تنم عن شفقة؟ - أم عن شماتة؟ - أو

ربما عن سخرية؟ مرت بفكر جرينه سريعا أحاديثها مع آتان: "كانت أزمنة جميلة، تلك التي كانت النساء فيها تَختَرْنَ الرجل لتمنحنه الحب. أزمنة جميلة."

تسلل الكره إلى نفس جرينه: كره تجاه آتان الذي يجلس هناك في تعال، وكره تجاه والدها الذي فعل بها هذا، وكره تجاه والدتها التي تركتها وحدها تتخبط. كره تجاه جميع من يجلسون هنا من أجلها.

بدأ الكهنة الآن في غناء أغاني المديح. امتدح بريزال فين، في حين وجه دواناخ مديحه للملك المعظم. نظر ديرميد وجرينه ثانية إلى بعضهما البعض، وأحست جرينه بأن ديرميد يستمع قليلا لمن حوله مثلها تماما.

أخذت تفكر. لديّ خادمة هي في الأصل جنية، ولا أحدَ غيري يعرف بذلك الأمر. الآن عليها أن تساعدني.

أثناء ملء الكؤوس من جديد، نظرت جرينه إلى آلا، ثم قامت من مكانها. تقابلتا عند الباب الخلفي لقاعة الاحتفالات واتجهتا إلى الخارج.

قالت جرينه: "خطيبي هو فين"

فأجابتها فنجوالا: "علمت بذلك من الأغنيات"

"لن أصبح زوجته أبدا! لن أتزوج بكهل. سوف أهرب في هذه الليلة. – مع ديرميد."

رأت جرينه الذعر على وجه فنجوالا.

"آلا، إن حبي الذي لا يسأل عن السعادة أو الشقاء هو لدِيرميد. احرصي على أن يكون 'جمال البجع' عند البوابة. لكن أحتاج أولا إلى نبيذ معتق من أجل جميع من يجلسون في الداخل وكانوا يحدقون بي مثل البقرة، أو مثل الفرس. سوف تحضرينه لي يا آلا، ولن تدعي أحدا يمنعك من ذلك."

"هل أنت متأكدة من ديرميد يا جرينه؟"

"نعم، متأكدة. كنا ننظر إلى بعضنا البعض. سوف تكونين حاضرة يا آلا حين أتحدث إليه."

لم يلحظ أحد على جرينه القرار الذي اتخذته. فقد عادت للجلوس على مقعدها بمنتهى الهدوء، ووجهت حديثها إلى دواناخ قائلة: "كان أغنيتك أفضل من الأغنية الأخرى"

ابتسم بلطف وقال: "شكرا! لكن بريزال قد امتدح فين أيضا بشكل جيد يا ابنة الملك. بالمناسبة، لقد اتخذت قرارا صائبا."

أجابته جرينه: "هذا رأيي أيضا" ما إن كادت تقول ذلك حتى رأت فنجوالا آتية بالكأس الكبيرة المملوءة بالنبيذ. قامت جرينه من مقعدها، وأخذتها منها، ثم ذهبت بها إلى فين ومالت عليه وهي تقول: "اشرب من هذا الكأس من أجل حبي."

شعرت للحظة بيد فين على ذراعها، ورأت نظرته التي تنطق بحبه. بعدها شرب.

"اشرب أنت أيضا أيها الملك كورماك من أجل حبي."

نظر إليها والدها، لكنها لم تكن ترى أمامها الوالد.. بل فقط الملك.

"اشربي أنت أيضا، أيتها الملكة."

"نعم يا جرينه، من أجل حبك."

أخذت جرينه تتنقل من ضيف إلى آخر. كان الرجل الجالس بجوار ديرميد هو من حصل على آخر رشفة. ناولتها فنجوالا كأسا جديدة، لكن جرينه مرت بها من أمام ديرميد وكأنها لم تره. عندما مالت على الشخص الجالس بجواره لامس شعرها كتف ديرميد.

استمرت جرينه في تقديم الكأس، وحين أعطته للرجل الجالس بجانب أويسين شرب كل ما كان فيه.

"لم يتبق لك شيء يا أويسين، لكنك لن تغضب مني. ها هو ساقي الملك آتٍ وسيحضر نبيذا جديدا" ملأت جرينه كأس أويسين. "سنفعل الآتي يا أويسين" أخذت الكأس وشربت منها، ثم وضعتها في يد أويسين. "اشرب أنت أيضا من أجل حبي."

كان الليل تقريبا قد انتصف عندما قفز أويسين فجأة من مكانه وأمسك بمعصم جرينه قائلا: "ماذا فعلت يا جرينه؟"

"ماذا فعلت؟ الضيوف متعبون. انقضى اليوم وانتهى حفل الزفاف."

"ما هو نوع الشراب الذي قدمته لهم؟"

"نبيذا"

"لم يشربوا نبيذا عاديا. لا يمكن أن يغلب النوم مائة رجل في وقت واحد."

"ظنك في محله يا أويسين. لقد خدعتهم كلهم بالنبيذ مثلما كنت سأنخدع أنا. قال لي الملك أن فين قد أتى طالبا الزواج، فظننت أنه يريد أن يزوجني بك أنت يا أويسين. أنا شابة ولا أريد أن أتزوج من رجل في عمر جدي. لذلك فإنني أسألك حتى لا أنقض عهدي: هل تقبل حبي يا أويسين؟"

"لكن يا جرينه، أنا لا أستطيع أن أخون والدي. لا أستطيع أن أتزوج بامرأة يريدها هو لنفسه."

"حسنا يا أويسين، أنا إذن حرة."

نظرت جرينه إلى ديرميد، فأقبل نحوها.

"وكيف هو الأمر بالنسبة لك يا ديرميد؟"

كان على جبين ديرميد كدمة صغيرة حمراء.

صاح: "جرينه!" ثم وضع ذراعه حول كتفيها وقال: "جرينه، أنا أحبك! لكن ذلك ليس من حقي؛ لأني مرتبط مع فين بعهد. ماذا ستكون النتيجة إذا هربت معك من تارا. سيلاحقنا فين طوال حياته."

"سعادة أو شقاء.. لا أعرف النتيجة ولا أسأل عنها يا ديرميد. فأنا أحبك."

"حتى إن كنا نحن -الاثنين- لا نسأل عن ذلك يا جرينه، فالأمر لا يتعلق بنا فقط. سيدفع رجال كثيرون حياتهم ثمنا لذلك."

"هل تفكر دائما كثيرا في حياة المحاربين، أم فقط حين يكون الأمر متعلقا بامرأة؟ أنا سأضحي بالكثير يا ديرميد، لكن العالم بأكمله الذي سأتركه من خلفي لا يساوى شيئا مقابل حبي لك."

أحكم ديرميد ذراعه حول كتفيّ جرينه، ثم قال: "أويسين، تعرف كيف ظهرت تلك الكدمة على جبيني. كانت الفتاة 'شباب' تشبه جرينه. شئتَ أم أبيتَ، أنا مضطر لأن أنقض عهدي. عندما نظرت إلى جرينه مساء اليوم، علمت أن هذا سوف يحدث."

أومأ أويسين وقال: "لكن لابد أن يظل عهدنا قائما بالرغم من ذلك. أنا أفهمك يا ديرميد."

صاحبت فنجوالا الاثنين إلى البوابة الصغيرة التي قلما كانت تستخدم. وهناك وجدا 'جمال البجع'.

وضعت جرينه يدها على ذراع فنجوالا.

"ابقي إلى جانبي بفكرك، فهذا سيساعدني."

"سأصاحبك في كل مكان تذهبين إليه يا جرينه، وفي يوم من الأيام سنلتقي من جديد."

قال ديرميد: "حان الوقت. كلما كانت المسافة التي نسبقهم بها أكبر، كلما كان ذلك أفضل" رفع جرينه فوق السرج وقفز خلفها. ثم انطلقا بالحصان.

فـــى غـــابة كـــلاتريكـــارد

قادت جرينه حصانها بنفسها حتى بلغا المعبر الموجود على نهر البوينه. كم كان كلاهما يعرف هذا الطريق جيدا، فقد مرا به مرات لا تحصى، إما و'جمال البجع' حاملا جرينه فوق ظهره، أو وهو يجر العربة بها. كان الطريق يمر على البحيرة حيث يعشش البجع، بجع جرينه. لم تسأل قط فيما قبل عما إذا كانت تلك البجعات هي نفسها التي تكون موجودة في كل عام. البجع يحب بعضه البعض طوال العمر، كما سبق وأن قالت فنجوالا، إذن لابد وأنها نفس البجعات دائما. في هذه الليلة كانت البحيرة سوداء وساكنة. لم يمض وقت طويل حتى أصبحت خلفهما.

لم يخطئ 'جمال البجع' مكان المعبر ولو بخطوة واحدة. فقد نزل إلى المياه دون أن ينتظر توجيها من جرينه. وفى المنتصف، حيث صار النهر عميقا، أحست جرينه كيف أحكم ديرميد ذراعيه فجأة حولها، كما شعرت بكتفيه. وعندها لم تعرف ما الذي حدث لها. أخذت تفكر: لم تحدث السعادة كل هذا الألم، لكن توترها بدأ يزول

ببطء. أنا لست وحدي، وكل ما سوف يحدث لن أتحمله وحدي، فديرميد بجانبي.

حين شاب السماء خلفهما ضوء أخضر جاء طلب جرينه: "ديرميد، توقف."

"نعم، أنت على حق. لابد للحصان أن يستريح."

"لم أطلب منك التوقف لهذا السبب يا ديرميد. لكن حتى هذه النقطة كان كل شيء معروفا بالنسبة لي، كل مزرعة، كل مرعى، كل شجرة. أما ما سوف أراه الآن عندما يطلع النهار، فسيكون غريبا عليّ. من الآن فصاعدا عليك أنت يا ديرميد أن تجد طريقنا."

قال ديرميد: "لابد أن نخرج من مايد، مملكة والدك. فبصفته الملك المعظم هو ملتزم أمام فين بعهده في المملكة بأسرها. لكنه ملتزم أمامه بشكل مضاعف في مايد. وما دام مكثنا في مايد يكون لزاما على والدك أن يلاحقنا. في كل بلد آخر من إرين سيكون فين فقط هو من يلاحقنا" لم يفصح لها ديرميد عن أسوأ مخاوفه: وهو أن يلزم الملك المعظم الملوك الآخرين أيضا بملاحقتهما.

"إلى أين تريد الذهاب يا ديرميد؟"

"إلى كوناّخت."

استمرا في الجرى بالحصان.

ومع الصباح وصلا إلى الطرف الجنوبي لبحيرة تسمى اليوم 'لوف ريه'. كان يقع عنده خليج لوان، حيث كانت تنتهي أيضا حدود مايد. أما هناك، على الضفة الأخرى، فكانت تبدأ مملكة كونّاخت.

"هيا يا ديرميد، هيا!"

"لا يا جرينه، لا بد للحصان أن يستريح أولا."

"أنا أعرف 'جمال البجع' أفضل منك يا ديرميد. ما زال بإمكانه العبور بنا إلى هناك."

"الحصان محموم. لا أعرف كيف استطاع أن يوصلنا إلى الحدود دون استراحة."

"لكن أنا أعرف يا ديرميد، ولا تسألني الآن عن ذلك. دعنا فقط نستمر في الجري، فعندما نعبر إلى الضفة المقابلة نكون قد نجونا من أشد خطر. كنت أرتعد طوال الوقت من أن يدركنا والدي، من أن ينقض عليك بسيفه، من أن يعيدني معه ويزوجني بفين. لنستمر في الجري يا ديرميد، أنا أعرف أحصنة تارا، وأعرف عرباتنا، وأعرف والدي. كوناخت على الضفة المقابلة يا ديرميد، هيا!"

"إذن ستركبين على الحصان وحدك يا جرينه، وأسبح أنا إلى جانبكما، وإلا نكون قد حمّلنا الحصان فوق طاقته. خذي فقط سيفي ورمحي معك على السرج. ولفي معطفك وضعيه على كتفيك."

"حسنا يا ديرميد، لكن أعطني أيضا معطفك."

عندما فتحت جرينه إبزيم معطفها، لم تجد باقة زهر البرسيم ذي الأربع ورقات. كان عنق واحد فقط لايزال عالقا بين مناقير البجع الذهبية.

عبرا خليج لوان من أضيق جزء فيه. وعلى الضفة الأخرى نزلت جرينه من فوق السرج وابتل جسدها حتى إبطيها، ثم تساقط الماء منها على الرمال والصخور. كان البرد قاسيا بالنسبة إليها. لاحظ ديرميد كيف كانت ترتعش، فقال لها: "اخلعي القميص المبتل وضعي المعطف"

لكن جرينه أجابته دون أن تنظر إليه مباشرة: "لا، لا، سيجف القميص ثانية. لا يؤثر عليّ ذلك"

وقف ديرميد أمامها وقال لها: "لكن يا جرينه! أستطيع أن أدير وجهي، إذا كانت تلك هي المشكلة."

تنفست جرينه الصعداء. بدّلا ملابسهما بينما كان 'جمال البجع' يقف حائلا بينهما. خلعت جرينه أيضا التاج الذي كانت تضعه على جبينها، وكذلك الأسورة، ونزعت اللآلئ والكرات الصغيرة من شعرها، ثم فتحت الجيب الموجود بالسرج ووضعت فيه الحلى.

قالت: "لقد اعتنت بنا آلا. ابتل اللحم الموجود في الحقيبة، لكنه سيسد جوعنا. هل تريد قطعة يا ديرميد؟"

"ليس بعد يا جرينه، لا بد أن نستكمل السير. بسهولة كبيرة يمكن أن نكتشف من الضفة الأخرى. فحصانك الأبيض، ومعطفك الأحمر.."

أثناء تسلق جرينه منحدر ضفة النهر أمام ديرميد لاحظ هو أنها لم تعد تلبس حليا، وأنها قد لبست معطفها مقلوبا على الجهة الداخلية. كانت تتكئ بإحدى يديها على رمحه، وتحمل على ذراعها القمصان المبتلة. لقد جنبت كل ما من الممكن أن يميزها كابنة ملك دون أن تنطق بكلمة واحدة. فقط شعرها الذهبي الكثيف كان لا يزال يلمع.

-إنها تختلف عن كل الفتيات اللاتي عرفتهن فيما قبل يا ديرميد! -

انتفض ديرميد. أوقف الحصان وتلفت حوله متسائلا: من أين أتى ذلك الصوت؟ لم يكن هناك أحد. فاستمر في السير ولكن بحذر.

إنها تحبك كما لم يحدث لك أبدا في السابق! -

توقف ديرميد مرة ثانية، وهو في ذهول تام. لا أحد في الجوار، فقط رأس 'جمال البجع' تلامس كتفه، بينما كان الحصان يقف بجانبه في هدوء، ويرمش بجفونه بصورة منتظمة.

-أنت الرجل الأول في حياتها يا ديرميد. فعاملها بحذر! -

عندما اعتليا المنحدر، بحثا عن مكان يستطيعان مراقبة الضفة الأخرى منه. بدأ 'جمال البجع' يرعى، بينما أخرجت جرينه اللحم من الحقيبة الملحقة بالسرج.

جلس ديرميد وقال: "تعاليْ إلى جواري يا جرينه. نستطيع أيضا ونحن جالسان أن نراهم إذا ما أتوا الآن."

ارتكزت جرينه على ركبتها بجانبه. "إلى أين سنتجه يا ديرميد؟"

ضحك، ثم أجاب: "إلى الشمال، إلى الجنوب، أم تفضلين الاتجاه إلى الشرق؟ بإماكنك أن تختاري. من المؤكد أننا لن نمكث بأي مكان. - لم تنظرين إليّ في خوف هكذا؟ أنا بجانبك، وطالما ما زال في استطاعتي تحريك ذراعي، فأنت في أمان من فين."

وضعت رأسها على كتفه، فربّتَ على وجهها وأسند يده على عنقها.

سألت بصوف خافت: "ديرميد، هل حقا لن تتركني وحدي أبدا؟"

"أبدا، ما حييت."

بقيت جرينه ساكنة، وأخذ ديرميد يشعر بها وهي تتكئ أكثر فأكثر على ذراعيه.

همس إليها سائلا: "هل يستطيع حصانك أن يتحدث يا جرينه؟"

فغمغمت بقولها: "نعم، لكن ليس في استطاعة كل إنسان أن يفهمه. 'فجمال البجع' آتٍ من 'بروف نا بوينه'، يا ديرميد" بعد أن قالت ذلك استسلمت للنوم.

أرقدها ديرميد على ركبتيه وأخذ يتأملها. كان ما يدور بفكره هو كيف أن 'الشباب' قد أصبح في حوزته ثانية. انحنى عليها، فأحس بأنفاسها الدافئة على وجهه، وأيقن أنه لم يكن قط سعيدا في حياته مثلما هو في تلك اللحظة.

لم تتم جرينه طويلا، فقط دفعها القلق إلى الاستيقاظ. استمرا في السير، وعند المساء كادا يمران من أمام رجل يقوم بالصيد مستعينا في ذلك بقاذف حجارة. لا بد أنه واحد من الأحرار، لأنهما رأيا بعد فترة وجيزة مزرعة كبيرة واقعة بمنخفض أمامهما، ومحاطة بسدين حجريين. لم يكونا متأكدين ما إذا كان بالفعل قد رآهما، ومع ذلك حوّلا وجهتهما.

بلغا كوخا لراعِي أغنام، وتوجها نحوه لأن السماء كانت قد بدأت تمطر. كان نزلا متواضعا، لكن الراعي استقبلهما بلطف.

قال لهما: "لا أملك الكثير، لكن إذا رضيتما بقطعةٍ من جبن الماعز وبطبق من اللبن، فسيحميكما سقف هذا الكوخ من المطر."

عندما لاحظ الراعي أن ديرميد لا يعطي إجابات محددة، لم يستمر في طرح الأسئلة عن المكان الذي أتيا منه أو الذي يتجهان إليه. قال لهما: "لا يعنيني سبب ترحالكما، فلابد وأنكما تعرفانه. استلقيا على القش، يبدو عليكما أنكما لا تحتاجان لشيء أكثر من نومة هادئة"

توجه ديرميد معه إلى الخارج ليقوم بربط 'جمال البجع'. وقد أحضر الراعي للحصان دلوا مملوءا بالماء.

قال: "إن فتاتك جميلة جدا، كما لم أرَ من قبل فتاة في جمالها. أستطيع أن أتفهم أن يخاطر المرء من أجلها."

في وسط الليل أحس به ديرميد يهز ذراعه: "استيقظ! استيقظ! أريد أن أقول لك شيئا!"

هب ديرميد اقفا وأمسك بسيفه.

"أخ، ليس هناك ما يدعوك للخوف مني. لكن ربما يكون من الأفضل لكما أن تبدآ في السير مجددا. فقد حضر إلى هنا أحد العمال لدى سيدي. لا، لا، لم أدعه يدخل إلى الكوخ، ولم يرَ الحصان أيضا. لكن أحد رجال فين ماك كومهال الذين يقومون بالاستطلاع كان قد أتى عبر 'لوف ريه'، وسأل في مزرعة سيدي عن رجل ذي شعر أسود وفتاة شقراء يمتطيان حصانا أبيض. استكملا السير! لا أريد أن أعرف إلى أين، ولن أتبعكما بنظري."

أهدت جرينه الراعي لؤلؤة، ثم انطلقا بالحصان حتى جاء الصباح. ظلا يسيران طوال اليوم، ثم طوال الليل. وفي صباح اليوم بعد التالي كانا قد وصلا إلى غابة كلانريكارد، التي كانت تسمى في قديم الأزل 'بالغابة ذات الكوخين'. كان ديرميد يعرفها؛ لأنه كان يصطاد فيها كثيرا كلما نزل ضيفا على ملك كوناخت.

قال ديرميد: "سيكون أحد الكوخين ملجأنا. لن يبحث عنا فين أبدا في منطقة الصيد التابعة للملك. تحملي يا جرينه، سنصل قريبا إلى هناك" كان لا بد أن يشد من عزيمة جرينه كلما كانت ترتخى فوق الحصان من فرط التعب. "لم يبقَ طويلا يا جرينه حتى تستطيعي أن تستلقي وتنامي، وسأكون أنا بجانبك."

ها هو الكوخ قد أصبح أمامهما. كانت حوائطه من جذوع الشجر الرقيقة، التي تسلل العفن إلى نصفها فصارت آيلة للسقوط. وكان السقف قد مال من أثر الريح عليه، ونمت عليه الطحالب. كان مكانا جيدا، لم يستخدمه أحد منذ سنين حتى أصبح منسيا.

صاحت جرينه وكأن كل التعب قد ذهب عنها: "قلعتنا!" أخذت تبحث فيما حولها عن عشب المراعي، وعن الطحالب المتشابكة. وعندما وجدتها نزعتها وحملتها إلى داخل الكوخ. أما ديرميد فقد أخذ يدعم الحوائط باستخدام بعض الجذوع المكسورة. كما قام بنزع بعض الفروع من الأشجار ليكثف بها السقف. وعندما حلّ المساء كانا قد هيآ فراشا وسقفا يبيتان تحته. أكلا آخر قطعة لحم كانت فنجوالا قد زودتهما بها، ثم تدثرا بمعطفيهما وناما نوما عميقا.

ما لم يعرفاه هو أن فين ماك كومهال قد أجبر الراعي في هذا المساء على الحديث. فقد وصل إلى نزل الراعي عن طريق تتبع آثار

حوافر 'جمال البجع'، وأمر رجاله بمحاصرته وإحراقه. وحين أحس الراعي بالاختناق من رائحة الدخان، هرع إلى الخارج وقدم لفين اللؤلؤة التي كانت جرينه قد أهدته إياها.

"كانا هنا، لكن لا أعرف إلى أين توجها بحصانهما" لم يصدقه فين وأوسعه ضربا.

أفزعت النار التي انبعثت السيد الحر التابع لمملكة كوناخت. فتوجه بصحبة جميع خدمه إلى مكان الحريق. وعندما رأى الراعي ملقى على الأرض، قام بمساءلة فين: "من الذي أعطاك الحق في أن تضرب رجلا أملكه؟"

رد فين قائلا: "أنا لا أسأل من يعطيني الحق. أنا آخذه بنفسي. لقد تم خداعي وسلبت مني زوجتي الشابة."

"لكن ليس من قبل ذلك الشخص الذي قمت بضربه. فلتضرب الشخص الصحيح وتمسك بطيرك الصغير مرة أخرى. ولتختف في التو من أرضي. فهنا يسري قانون أحرار كوناخت!"

انقض عليه فين مدفوعا بغضب أعمى. وفي اللحظة التالية كان القتال بين رجال فين وعمال السيد الحر قد نشب. كان أول قتال ينشب بسبب جرينه. وكان لا بد أن تتناقله الألسنة.

عندما استيقظت جرينه في صباح اليوم التالي، كان ديرميد قد اختفى. قفزت من مكانها وذهبت لتنظر من خلال فتحة الباب. لم يكن أمام الكوخ، فهرولت إلى الخارج. لكن لم يكن هناك أثر لديرميد، أو ‘لجمال البجع’. تملك الخوف جرينه، فلم تستطع أن تنادي، ولم تستطع أن تتحرك من مكانها.

لم تعرف جرينه ما إذا كانت قد بقيت واقفة هكذا لفترة طويلة أم قصيرة. فجأة سمعت خطوات، خطوات حصان، ثم صوت شيء يكسر، وشيء يسحب. بعدها رأت رأس ‘جمال البجع’ بين الأشجار ثم رأت ديرميد. كان يسحب تحت ذراعيه جذوع أشجار، وكذلك كان ‘جمال البجع’ يجر خلفه جذوعا. "ديرميدا!" صارت عنده دون أن تعرف كيف. "ديرميدا!" جذبت رأسه إليها وألصقت وجهها به.

"هل أصابك الخوف يا جرينه؟"

أومأت برأسها.

فقال لها: "لا تخافي. أريد أن أبني سياجا حول الكوخ؛ لأنه سيتوجب عليّ الذهاب للصيد، وسوف تبقين وحدك كثيرا"

"لا يا ديرميد، سأذهب معك للصيد، وسأساعدك أيضا في بناء السياج."

ظلا يعملان طوال النهار. وقد وجدا ما يكفي من أجزاء الأشجار التي سقطت بفعل الريح. كانت جرينه تنتقي الجذوع غير السميكة وتضعها في سرج الحصان، ثم تتوجه بها إلى الكوخ. وكان ديرميد يقطعها إلى أجزاء، ثم يطرق عليها بحجر ليغرسها في الأرض. كلما قارب النهار على الانتهاء، كان يكثف جهده في العمل.

قالت جرينه: "نحتاج أيضا إلى موقد"

أجاب ديرميد: "يمكن أن نرجئ ذلك إلى الغد. فأنا لن أذهب اليوم إلى الفراش قبل أن يصبح السياج جاهزا"

انتقل قلقه إلى جرينه.

"هل تخشى من أن يأتي فين اليوم في الليل؟"

"في ليل يومنا هذا أو في أي ليلة أخرى.. هو آتٍ لا محالة. فأنا أعرفه" ترك ديرميد الحجر الذي كان يضرب به توا على جذع شجرة يسقط على الأرض. "كم هو عجيب أن نكون أنا وفين الآن أعداء"

"هل أنت نادم يا ديرميد؟"

"نادم؟" استدار نحوها وأخذ ينظر إليها. كان وقع نظرته على جرينه مثل رعشة الحمى. تملكها خوف غريب، فتراجعت إلى

الخلف. أما ديرميد فقد تغلب على نفسه. رفع الحجر من على الأرض واستمر في العمل.

عند المساء كان السياج قد صار جاهزا. تفقده ديرميد مرة أخرى من الجهتين، واختبره عن طريق هز الجذوع في عدة مناطق، فتأكد أنها ثابتة.

كان ديرميد وجرينه على وشك الدخول إلى الكوخ عندما سمعا كلبا يلهث. دوى صوت ضربات قلب جرينه في أذنيها حتى وقفت وكأنها متحجرة.

ظل لهاث الكلب يقترب حتى ظهر فجأة كلب كبير أبرش يتجه نحو السياج، ثم يبطئ، ويتشممه. وحين وجد المدخل اندفع عبره وأخذ يقفز على ديرميد وهو يعوي.

صاح ديرميد: "بران! إنه بران، كلب أويسين. لقد أرسله أويسين إلينا ليحذرنا. لا بد وأن فين قريب من هنا."

صاحت جرينه: "لنهرب من هنا، لنهرب من هنا! علينا أن نهرب يا ديرميد، علينا أن نواصل المسير!"

"لا يا جرينه، لن نستمر في الهروب. فين يريد القتال، إذن سيناله. أنا لا أريد أن يدفعنا أمامه مثل حيوانات الصيد. أريد أن أقاتله هنا، فعندها سنحظى بالراحة."

"أنت لا تستطيع أن تقاتله هو وأربعين من رجاله. دعنا نهرب يا ديرميد!"

"هل هم أربعون رجلا؟ لن يشهر أويسين سيفه في وجهي، لن يفعل أويسين ذلك!"

سمعا من بعيد نداء طويلا ومخيفا. تشبثت جرينه بديرميد وصاحت: "ما معنى ذلك؟"

ضحك ديرميد وقال: "ليس ذلك سوى كايلت. هو أيضا يريد أن يحذرنا. ما زال لي أصدقاء بين رجال فين. سيكون الأمر صعبا عليه."

جاء الصياح من بعيد للمرة الثانية. انسحب الكلب من منطقة السياج وجرى بعيدا. تتبعه ديرميد بنظره قائلا: "من هذه الجهة سيأتون."

ناشدت جرينه ديرميد: "ما زال أمامنا وقت الآن، دعنا نهرب يا ديرميد. لن يطعن أحد في شجاعتك إن تجنبت القتال مع كل هؤلاء الرجال. أريد أن أعيش معك يا ديرميد!"

"ادخلي إلى الكوخ يا جرينه، إنني أسمع الآن صوت العربات."

لم يمضِ وقت طويل حتى أصبح السياج محاصرا من رجال فين. حاول ديرميد من خلال الفتحات الموجودة في حوائط الكوخ أن يتبين من هم. همس لجرينه قائلا: "أويسين ليس معهم، ولا جول، ولا كونال. كايلت ولوغايت متغيبان أيضا. إنهم يرفضون محاربتي"

في تلك اللحظة رأى فين متوجها صوب السياج. "عليك الآن أن تفعلي ما أقوله لك يا جرينه. فقط الحيلة هي التي ستنجينا."

صاح فين وضحك ضحكة مليئة بالتهكم: "اخرج يا ديرميد، إن لم يكن الحب الكبير قد جعل منك جبانا!"

كان ديرميد وجرينه يقفان معًا عند باب الكوخ. صاح ديرميد في المقابل: "لم أهرب يوما من قتال. وهذا ما لا تعرفه أنت فقط يا فين، بل يعرفه كل رجالك، وخاصة من لا يقف منهم الآن إلى جانبك. يبدو لي أنهم لا يقفون جميعا في صفك يا فين. ويبدو لي أيضا أنهم لم ينسوا السنين الجميلة التي قضوها مع قائدهم"

"اصمت يا ديرميد. أنت تريد أن تحدث انقساما بين رجالي."

"لا أحتاج إلى ذلك، فهم بالفعل منقسمون!"

كان سخط فين يزداد من لحظة إلى أخرى. فرؤيته لجرينه وهي تقف بجانب ديرميد كادت تفقده رشده. لكن من أجلها لم يجرؤ أن يعطي إشارة بدء القتال، فهي لن تفارق ديرميد، وبالتالي ستهلك معه.

صاح ديرميد قائلا: "رجال فين كما أعلمهم يؤمنون بعدالة المبارزة بين شخصين. فقتال ثلاثين رجلا ضد رجل واحد لا يحقق لهم صيتا. لنتبارز أنا وأنت يا فين! فإذا نجوت أنا من الموت، سأكون مستعدا لكي أبارى كل شخص يقف الآن إلى جانبك"

التف رجال فين حوله وألحوا عليه أن يقبل اقتراح ديرميد. انضم إليهم الآن أيضا أويسين، وجول، وكايلت، وبعد برهة صاح جول قائلا:

"وافق فين على اقتراحك يا ديرميد!"

في تلك الأثناء كان الظلام قد حل.

هنالك صاح ديرميد: "لنتبارز غدا باكرا حتى نستطيع أن نرى أين نضرب بسيوفنا. لن أهرب، أعاهدك على ذلك!"

وللمرة الثانية ألح الجميع على فين بذلك حتى صاح أخيرا: "لم أعد أعتد بعهدك يا ديرميد. ما قلته ليس إلا اقتراحا سأقبله بشرط: أن تعطينى فورا ما أمتلكه – جرينه!"

ساد الصمت لوهلة. بعدها قالت جرينه: "لن تحصل عليّ أبدا يا فين ماك كومهال."

تقدم ديرميد الآن مع جرينه أمام باب الكوخ، وحين تأكد أن الجميع يستطيعون رؤيته، أخذ جرينه بين ذراعيه وقبّلها على شفتيها ثلاث مرات. كانت تلك هي العادة بعد أن يكون رجل قد تزوج بالفعل من فتاة.

هز الغضب والألم فين لدرجة أنه صاح قائلا: "ستدفع رأسك ثمن ذلك يا ديرميد! لن أفقد جرينه أبدا" وأراد أن ينقض على السياج، لكن أويسين اعترض طريقه وقال له: "لقد قمتَ بمطاردتهما حتى وجدتهما. انتظر حتى غدٍ في الصباح الباكر. عليك أن تستريح في هذه الليلة لتتهيأ للقتال معه."

"هل تلمح الآن لعمري يا أويسين؟"

"ألمح يا أبي! الكل يعرف أن عمرك يساوي أكثر من ضعف عمر ديرميد، وأنا قلق من أن يصور الشعراء تلك المبارزة في نشيد سخرية يتغنون به في جميع أنحاء إرين. لا توجد مهانة أكبر من ذلك لرجل مثلك"

أذعن فين لكلام أويسين.

لكن ديرميد لم يثق به. أسند ظهره إلى أحد أعمدة الباب وظل ممسكا بالسيف في يده. كان يستطيع أن يسمع رجال فين وهم يتشاجرون. فقد كان البعض منهم يساندون فين، بينما كان البعض الآخر ضده. جلست جرينه القرفصاء على الفراش. كانت قد تدثرت بالمعطف الأحمر المصنوع من القطيفة، وثبتت بصرها في الظلمة. "أتساءل إن كانت تلك هي ليلتي الأخيرة. أنا خائفة يا ديرميد. لكن لو يعود بي الزمن إلى المساء الذي قضيناه في تارا، ما كنت لأتخذ قرارا آخر" لم تكن جرينه تعرف إن كان ديرميد ينصت إليها. كانت في الواقع تتحدث إلى نفسها أكثر من كونها تتحدث إليه. وكما حدث لها قبل أيام عند خليج لوان غلبها النعاس، ولم تملك القوة لتقاومه. "قبل قليل قبلتني وكأنني أصبحت بالفعل زوجتك، بالرغم من أنني ما زلت فتاة. ترى هل من الممكن أن نصبح يوما ما رجلا وامرأة؟ أنا أحبك كثيرا يا ديرميد."

أدرك ديرميد من أنفاسها، أنها قد نامت. هو أيضا كان يتذكر الساعة التي مرت عليهما عند خليج لوان، حين كانت جرينه مستلقية على ركبتيه.

وفجأة أعاده شيء إلى الواقع. رأى شخصا كبيرا داكنا يقف أمامه. رفع ديرميد سيفه.

"ليس هناك ما تخشاه يا ديرميد. أنا آنجوس من ‘بروف نا بوينه’" أخذ الشخص السيف من يد ديرميد واستطرد: "جئت لأساعدكما على الهرب. لن يلحظ ذلك أحد من الأعداء" رفع الشخص ذراعيه وفرد معطفه، وهو يقول: "الحصان ‘جمال البجع’ جاهز."

تردد ديرميد لوهلة في القرار الذي كان عليه أن يتخذه. فآنجوس، سيد مملكة الجان، قد عرض عليه مخرجا آمنا. وأخيرا استقر رأيه.

"خذ جرينه معك يا آنجوس من ‘بروف نا بوينه’. أنا أريد أن أبقى هنا لأقاتل فين. لقد جعلني حبي لجرينه أنقض عهدي مع فين، أما الآن فأريد أن أحافظ عليه. انقذ أنت جرينه!"

اقترب آنجوس أكثر وقال: "سآخذ جرينه معي إلى ‘روس – دا – سويليتش’. ستجدها هناك إذا انتصرت في القتال."

كانت جرينه لا تزال نائمة عندما لف آنجوس حولها معطفه ذي اللون الداكن. عض ديرميد على نواجذه، ورجاه بقوله: "أود أن أسمعها مرة ثانية وهي تتنفس"

ظل آنجوس واقفا أمامه لوهلة، ثم حمل جرينه إلى خارج الكوخ واختفى بها في الظلام.

أخذ ديرميد يقول بينه وبين نفسه: إلى 'روس - دا - سويليتش'، وذلك حتى ينطبع الاسم في ذاكرته.

إنه ذلك المكان، الذي نشأت فيه بعد عدة قرون مدينه ليميريك.

حين استيقظت جرينه من نومها العميق وفتحت عينيها، رأت فوقها سقفا ثابتا وكثيفا لكوخ. عند قدميها كانت هناك نار مشتعلة، وكان يجلس أمامها أحد يضع على كتفيه معطفا داكن اللون.

نادت جرينه بصوت منخفض: "ديرميد!"

استدار الشخص الموجود معها بالكوخ ناحيتها ببطء: "أنا آنجوس من 'بروف نا بوينه'."

أمعنت جرينه التفكير في الاسم وفي نبرة الصوت، ثم أخذت تكرر ببطء: آنجوس من 'بروف نا بوينه'. هل أرسلتك آلا؟"

"نعم، استدعتني فنجوالا."

الآن تذكرت جرينه كل شيء. اتخذت وضع الجلوس، وسألت: "أين ديرميد؟ قل لي يا آنجوس، أين ديرميد؟"

"سيكون هنا قريبا. انظري، أنا أقوم بِشَيّ لحم من أجلكما"

"هل فارقت ديرميد منذ وقت طويل؟"

"منذ يومين وليلتين."

"هل يعرف ديرميد مكاني؟"

"يعرف، و'جمال البجع' يعرف الطريق."

ابتسمت جرينه: "جمال البجع". فاسم حصانها مرتبط عندها بأشياء كثيرة جميلة – في تارا. عبست جرينه وقالت: "هل كنت في تارا يا آنجوس من 'بروف نا بوينه'؟"

"نعم، الملك أدركه المشيب في ليلة واحدة، أما الملكة فتجلس أمام النافذة في برج السيدات، وتنظر إلى حيث وجد رجال فين آثار حوافر حصانك"

الملك.. الملكة.. كانت جرينه مستلقية، وقد أغلقت عينيها. لكنها كانت ترى أمامها أباها، وأمها، وصالة المعيشة، وبرج السيدات. كم كانت ترى ذلك كله بوضوح شديد. رأت والدها وهو ينحني على لعبة الشطرنج، وكذلك والدتها وهي تنقر أوتار القيثارة. تعمقت جرينه أكثر فأكثر في الذاكرة حتى أصبح كل شيء حاضرا أمامها: أصواتهما، حركاتهما، حتى التجاعيد في جبين والدها، والأظافر الشاحبة في يد والدتها. الشيء الوحيد الذي لم تستطع جرينه استحضاره هي السعادة التي كانت تشعر بها دائما في تلك الساعات.

كانت سعادتها آنذاك في الحياة مع والدها ووالدتها في قلعة الملك. أما اليوم فقد تغير ذلك، اليوم أصبحت سعادتها شيئًا آخر.

"هل سيطول بي الانتظار حتى يأتي ديرميد؟"

هز آنجوس من 'بروف نا بوينه' رأسه. "قريبا يا جرينه. لكني أود أن أستغل الوقت وأحكي لك شيئا. ديرميد في منزلة ابن لي. لقد ربيته في 'بروف نا بوينه'."

قاطعته جرينه سائلة: "أنت؟ إنه ابن دون!"

"نعم، هو ابن دون، لكن زوجة دون لم تكن أمه. أمه كانت خادمة، ولذلك أبعد عن المنزل، فقمت أنا بتربيته. وحين بلغ ستة عشر عاما وعاد إلى والده، قمت بتجريده من ذكرياته عن 'بروف نا بوينه' لأنه إنسان ينتمي إلى العالم الأرضي. إنه أيضا لا يعرف السحر الواقع عليه. لكن عليك أنت أن تعرفيه حتى لا يكون فين هو الشخص الوحيد الذي يعرفه. على ديرميد ألا يقتل خنزيرا بريا أبدا، وإذا لم يلتزم بتلك الوصية فإن ذلك سيجلب له الموت."

"هلا أخبرتني سبب ذلك؟"

"إنها قصة مفزعة تسبب والده فيها. لا تسألي عنها يا جرينه. لكن لا تنسيّ أبدا: إنه واقع تحت سحر خنزير بريّ"

أومأت جرينه، وفي تلك اللحظةِ تذكرت كيف حصل ديرميد على كدمة الحب في جبينه. قالت: "كان حينها يصطاد خنزيرا بريا مع جول وكونال. هل قمت أنت بصرفهم عن ملاحقته يا آنجوس؟"

"نعم، كنت أنا من قام بذلك"

في وسط تلك الليلة جاء ديرميد. بكت جرينه من فرط السعادة.

نزع آنجوس اللحم من السيخ وقطعه إلى قطع مناسبة للأكل. أكل الاثنان، وفجأة قال ديرميد:

"لم يلتزم فين باتفاقنا على المبارزة الثنائية. واجهني مع ثلاثين من رجاله عند البوابة، وبالكاد استطعت الهروب منهم."

بادرته جرينه بسؤالها: "هل كان أويسين معهم؟"

"لا، لم يكن معهم، أيضا كايلت ولوغايت وجول وكونال رفضوا القتال. كانت الفتحة الموجودة بالسياج لا تسمح بمرور أكثر من شخص واحد في نفس الوقت. لذلك وقف فين هناك وخلفه كل الرجال الآخرين. أصبت كتفه برمحي فسقط، وقفزت أنا قفزة قوية من فوقه، فصرت بين رجاله. صرعت منهم ثلاثة، فتنفست الصعداء،

وبعدها اتخذت من رمحي مسندا لأقفز من فوقهم. كان الحصان يقف في المكان الصحيح. والآن أنا هنا – وستظل المطاردة مستمرة."

أنزلت جرينه ذراعيها.. وأحست باللحم الذي في فمها نيئا مثل قطعة الجلد.

قال آنجوس: "سآخذ معي الحصان حتى لا تَشِي آثار حوافره بكما بعد ذلك. وإذا ظللتما مستمرين في الهرب، فلا تختبئا أبدا في كهف ذي مخرج واحد. أيضا لا تناما حيث تطهوان الطعام، ولا تجلسا لتناول الطعام حيث تنامان."

أحست جرينه بغصة في حلقها. ودّتْ بشدة لو تسأل: كم من الوقت سيستغرق هذا الهروب يا آنجوس؟ لكن لأنها خشيت من الإجابة، لم تسأل.

اشتركت مع آنجوس في حراسة ديرميد أثناء نومه. وعندما خرج آنجوس في الصباح بهدوء، تبعته. أسندت رأسها إلى عنق 'جمال البجع' بينما كان جسدها كله يرتعش.

قام آنجوس بفصل الجيوب الملحقة بالسرج عنه، ثم وضع بداخلها قطعتين من الحجر الصوان، وأعطاها لجرينه وهو يقول لها: "اذهبي إلى ديرميد". هكذا تركت جرينه حصانها يرحل.

على شاطئ البحر

أصبح الهروب الآن هو حياتهما. أيقنا ذلك ولم يحتجا.

في الفترة الأولى ظلا على ضفاف نهر سيونا الذي يسمى الآن شانون. فقد أمدهما بالغذاء، ولم تنقطع عنهما المياه قط. منذ أسابيع لم يأكلا شيئا آخر أكثر من السمك، سمك السلمون المشوي سريعا، إما عن طريق الإمساك به فوق النار بعد وضعه على رمح ديرميد أو عن طريق وضعه مباشرة على جذوة النار. كانت تنبعث من قشرته المحترقة رائحة كريهة، وكان اللحم يفتقد لأي طعم جيد. فقط الجوع فقط هو الذي كان يجعلهما يبتلعانه من جديد في كل يوم. كانا يجهزان وجبتهما دائما أثناء النهار، ذلك لأنه كان من الممكن أن تدل عليهما النار بسهولة أثناء الليل. وكانت جرينه دائما تشعل النار، بعد أن ترى ديرميد خارجا من الماء. كثيرا ما كان يضطر إلى الوقوف فيها لساعات حتى ينجح في اصطياد سمكة.

في إحدى المرات قال: "لو كان لديّ رمح صيد خفيف الوزن لاستطعنا أن نبتعد عن الماء. فالغابات والمستنقعات هنا كافية. وكذلك

توجد حيوانات للصيد. لكن رمح القتال الثقيل لديّ لا ينفع في الصيد، فهو لا يطير سريعا ولا بعيدا بالقدر الكافي"

وقالت جرينه: "لو كان لدينا قدر لأفادنا. فالسمك المطبوخ يمكن أن يكون وجبة جيدة."

رمح وقدر.. دار تفكيرهما حول ذلك. لكن كيف يحصلان عليهما وقد ابتعدا عن كل البيوت؟ كان نباح كلب أو صهيل حصان من بعيد كافيين لجعلهما يقومان مفزوعين من فراشهما ليلا.

في أحد الأيام توقفت جرينه أثناء السير وقالت: "ألا تسمع شيئا يا ديرميد؟"

توقف هو أيضا، وقال: إنها ورشة حدادة. استمعا إلى صوت ضربات المطرقة. كانت بانتظام ثلاث ضربات خفيفة وثلاث أخرى ثقيلة. كانت الضربات الخفيفة تنزل على السندان، أما الثقيلة فكانت تنزل على الحديد المتوهج. استحضرت جرينه صورة ورشة الحدادة في تارا. فكل الآلات الحديدية التي كانت تستخدم في قلعة الملك كانت تصنع هناك، حيث القدور معلقة على الحوائط والرماح مستندة إليها. أمسكت بيد ديرميد. وبفضل رائحة النيران الملتهبة والمنبعثة من خشب الزان المحترق وجدا طريقهما إلى الورشة دون عناء.

"إننا نخاطر كثيرا يا جرينه."

"فلنخاطر."

خلف السور الحجري كان هناك كلب ثائر بشدة، لدرجة أنه كاد يخنق نفسه بالسلسلة الطويلة التي ربط فيها. مشى ديرميد وجرينه عبر الساحة التي غمرها ظل أشجار البلوط العملاقة. تطايرت شرارة من داخل الورشة، حيث كان الحداد يقف مع عامل وفتى مسئول عن المنفخ. لم يكن هناك غير هؤلاء بالداخل.

فقط الفتى هو الذي تملَّكه الفضول، أما الحداد فقد استمر في طرق الحديد الأحمر. وحين فقد حرارته، وأصبح لونه رماديا، أعطى الحداد الكماشة للعامل.

كان الحداد ينظر ناحية الحائط وهو يقول لهما: "إذن تريدان قدرا ورمحا للصيد. من الممكن صنعهما، ولكن– " رفع كتفيه ونظر إليهما من أعلى إلى أسفل. "لا يبدو عليكما أنكما تملكان ما تقايضان به"

طأطأت جرينه رأسها، ثم فتحت الحقيبة التي كانت ملحقة بالسرج، والتي صارت الآن معلقة بحزامها، وأخرجت منها إسورتين قائلة: "واحدة من أجل القدر وواحدة من أجل الرمح. إنهما من الذهب، إنهما حتى تلمعان في ورشتك المظلمة."

دار الحداد حول السندان حتى وصل إلى جرينه. لم يستطع أن يفهم ما كانت جرينه تعرض عليه. "من أين لكما هذا؟"

صاح ديرميد في وجهه قائلا: "يجب ألّا يشغلك ذلك! هذا مقابل أن تعطينا قدرا ورمحا للصيد"

اقترب الحداد أكثر متفحصا جرينه، ثم ديرميد.

خاطب خادمه قائلا: "هات قدرا من على الحائط. وعند الموقد في الخلف توجد الرماح" وضعت جرينه الأساور على يديه الكبيرتين. قال: "ارحلا من هنا! ارحلا من ساحتي، ولا تظهرا أبدا مرة ثانية بالقرب من هنا. فأنا أعرف من أنتما. سيحرق فين ماك كومهال سقف الورشة على رأسي، وسيضربني حتى الموت إذا علم بأمر مجيئكما. لا أحد يأمنه. وكم من الناس من قبل لم يصدقوا ذلك! هيا، اذهبا!"

لم يستطع ديرميد تحمل السخرية، فقال له: "أنت بالتأكيد لست من بين أكثر الرجال شجاعة."

منذ ذلك الحين لم يعودا مهتمين بالبقاء على ضفاف نهر سيونا. قاما بمحو آثارهما عن طريق الاتجاه قليلا نحو الجنوب، حيث الأرض مليئة بالتلال المنخفضة التي تنتشر عليها غابات كثيفة، وتوجد بها غزلان صيد كثيرة. كانت المروج هناك تنتهي إلى

مستنقعات، والمستنقعات تنتهي إلى مروج رملية واسعة. كذلك كان بتلك الأرض ما يكفي من الأرانب وكل أنواع الدجاج. كان ديرميد يصطاد بالرمح ويستخدم حزامه كقاذف للحجارة. لم يكونا في عوز.

على طرف مستنقع فينلياث كانت تقع مزرعة صغيرة. في صباح أحد الأيام، كانت قد سبقته معاناة شديدة لديرميد وجرينه من البرودة الليلية، سمع الاثنان من مكان غير بعيد إطلاقا عن فراشهما صوت طاحونة حجرية. تتبعاه وهما مختبآن بين الزعرور البري وشجيرات البندق حتى اكتشفا المزرعة. كانت أكوام من صوف الخراف معلقة على السور الخشبي من أجل تبييضها. كذلك كان هناك دجاج يجري عبر الساحة، وخنازير تتمرغ في حفرة رطبة. إلى جانب باب البيت كان في إحدى النواحي برميل زبد مائل دون أن ينقلب. أما في الناحية الأخرى فكانت الطاحونة الحجرية، تلفها سيدة طويلة وقوية دون عناء.

قالت جرينه: "ستقوم بعمل أقراص خبز. في منزلنا بتارا كانوا يعملون أقراص الخبز بنفس الطريقة أيضا، وكانت لها دائما نفس تلك الرائحة النفاذة، أول ما تخرج من الفرن، كما كانت هشة جدا" أحست

جرينه بطعمها في فمها. أقراص الخبز – لم تتذوقها منذ شهور. اشتد حنينها إليها لدرجة جعلتها تحملق في المنزل بعينين مفتوحتين.

الآن خرج رجل من الباب. كان عجوزا وهزيلا، يحمل على كتفه فأسا ويمشي منحنيا. استدار ناحية السيدة التي تقريبا لم تلحظه. وبعد أن انصرف بقليل كانت قد انتهت من طحن الحبوب، واختفت داخل المنزل. هنالك قررت جرينه أن تنتظر حتى يتم خبز الخبز.

قالت: "سأذهب إليها وحدي يا ديرميد حتى لا ينكشف أمرنا."

أومأ ديرميد وقال لها: "وأنا سأراقب المنزل أثناء تواجدك بداخله، لكي لا يصيبك شيء"

انتظرا حتى الظهيرة، ثم ذهبت جرينه. دخلت المنزل والسيدة تقلب الخبز.

عندما رأت جرينه تقف أمامها سألتها: "من أين أنت؟"

"لا تسأليني. أردت فقط أن أطلب منك قطعة خبز."

"قطعة خبز؟ انتظري، سيخرج الخبز الطازج حالا. اجلسي حتى يخرج. – من أنت؟"

"يجب ألا تسألي."

"لا تسألي! لا تسألي!" كررت المرأة ذلك في اقتضاب. "ولم لا؟ لا يضل أحد طريقه ويأتي إلى هذه الأرض القفر بسهولة، خاصة إذا كانت امرأة. هذا يستوجب السؤال. اجلسي!"

نظرت إلى جرينه. "تبدو ثيابك مهلهلة، هل ترتحلين منذ وقت طويل؟ لا بد أن معطفك كان في وقت ما جميلا جدا" أخذت تتحسس القماش، ثم قالت: "أنت تنتمين بالتأكيد إلى بيت طيب؟"

قالت جرينه: "سيحترق الخبز منك."

"اتركي ذلك الأمر لي. – هل ستنجبين طفلا ربما؟ ألهذا طردك والدك؟"

هزت جرينه رأسها.

"إذن ليس هذا هو السبب، لا بد إذن أن يكون شيئا آخر" استدارت ناحية الموقد. "ربما هربت أيضا من رجل، مثل ابنة الملك المعظم؟ لا أستطيع أن أفهم مثل هذا الأمر. من سألني مثلا إذا كنت أوافق على الزواج من هذا العجوز؟ أنا حتى لم أحصل منه على طفل. برأيي أن فين ماك كومهال لا يزال قادرا على الزواج. بالطبع أنا لا أعرف القائد الذي هربت معه ابنة الملك، لكن يبدو لي أنه كان قريبا منها، وأنه كانت هناك ثقة كبيرة لدرجة جعلت فين لا يلحظ ما

يدور بينهما. يا لما تتخيله تلك الفتاة الصغيرة. الحب، ما هذا! الفراش المشترك! تنقضي تلك السنوات القليلة سريعا" أعطت السيدة طبقا من اللبن لجرينه، وقالت: "اشربي! وها هو الخبز قد نضج" دفعت إلى جرينه بقرص كبير. "تستطيعين البقاء عندي إن أردت."

قالت جرينه: "لا، عليّ أن أستكمل رحلتي."

"هل سمعت أنت أيضا بقصة ابنة الملك؟"

ردت جرينه: "نعم، في بدايتها" ثم سألت: "لكن من أين علمت بها أنت؟"

"أنا؟ من فين نفسه. فقد مر مع رجاله من هنا"

"هل تعلمين وجهتهم؟"

"نعم، كان يريد التوجه جنوبا، إلى ملِك مونستر، إذا كنت لم أخطئ السمع."

أخذت جرينه الخبز الساخن ولفته في معطفها. "أريد أن أعطيك شيئا مقابل ذلك" قالت ذلك ووضعت كرة ذهبية صغيرة على المنضدة.

كادت عينا السيدة تسقط من رأسها من فرط الذهول. سألت: "ذهب؟ ذهب حقيقي؟"

كانت جرينه قد وصلت إلى الباب. تابعتها السيدة بنظرها. الآن فقط، في ضوء النهار، لاحظت شعر جرينه الذهبي الغزير. أخذت تفكر، ثم صاحت: "أيمكن أن تكوني أنت ابنة الملك نفسها؟"

لم تستدر جرينه نحوها.

منذ أن نما إلى علم جرينه أن فين قد توجه صوب الجنوب، بدأت هي وديرميد يتجهان غربا. لم تكن قد حكت لديرميد أكثر من ذلك. كان أثر الحديث مع زوجة الفلاح على تفكير جرينه أقوى من أثر أقراص الخبز الطازج على معدتها. "هل ستنجبين طفلا ربما؟" أخذت جرينه تفكر: من أين يأتى ذلك الطفل؟ من وضع ذراعه حولى؟

مع حلول الخريف، وفى يوم بارد، وصل ديرميد وجرينه إلى خليج كاسلمين. كانا قد بدآ رحلتهما منذ ساعات الصباح. وحين وصلا، أخذا يجريان طويلا عبر قطعة أرض مستوية، لكن جرداء. كان العشب فوقها يابسا، مما جعل جرينه تفكر أكثر من مرة بأن بطن قدميها قد تقطع بفعله. لم يكن يوجد في أنحاء المنطقة كلها حيوان أو انسان. فقط كانت هناك طيور نورس تحلق فوقهما وتصيح. شاب لمعانها اللون الوردى، لأن الشمس كانت آخذة في الغروب.

فجأة توقفا عند منحدر حاد. كان البحر ممتدا أمامهما، فرأت جرينه لأول مرة مساحته المجردة. مالت على ديرميد. أين هي نهاية الماء وأين تبدأ السماء؟ كل شيء كان أحمر ولامعا وبلا نهاية. فقط تحتهما على الرمال البيضاء كان الماء يتحرك تجاه الشاطئ في شكل منحنيات رقيقة ومتساوية.

وقفت جرينه هناك، وأخذت تنظر. ودون أن تدري كانت تأخذ أنفاسها وتخرجها مرة أخرى مع حركات الأمواج البيضاء.

سألها ديرميد: "هل يعجبك المكان؟"

"نعم. أود أن أمكث هنا برهة."

قال ديرميد: "سنبحث عن مكان لا يجدنا فيه أحد بسهولة."

كانت الليلة الأولى مرعبة. فقد حل الظلام دون أن يجدا مكانا يمكن أن يأويهما. بالإضافة إلى ذلك بدأت السماء تمطر ولم يتوقف المطر قبل نهار اليوم التالى. ظلا يتسلقان الشاطئ وهما يرتعشان من البرد. لم تستطع جرينه الاستمرار من فرط التعب، وانخرطت في البكاء. كان صوت صياح طيور النورس يشبه صوت الضحكات الساخرة. تابع ديرميد النورس ببصره، وهو يطير كله في اتجاه واحد، نحو اليابسة، حيث يختفى، ويعود بعدها مرة أخرى. اكتشفا

فيما بعد، إلى أين كانت الطيور تطير. كانت تحط على سطح كوخ موجود على خليج ضيق محمي.

"انتظرى هنا يا جرينه. أريد في البداية أن أذهب إلى هناك وحدى."

لكن جرينه صاحت فجأة: "بجع يا ديرميد! انظر، هناك بجعتان. الآن سيصبح كل شيء جيدا."

لابد أن الكوخ كان غير مسكون، لأن الموقد كان باردا، كما كان هناك نسيج عنكبوت كبير على الباب. بالداخل كان يوجد مقعد عريض أمامه منضدة، وشبكة صيد في أحد الأركان. كل هذا غطاه التراب، وانبعثت منه رائحة عفن. أما خلف الكوخ فكان هناك لبد نباتى وقارب ضعيف. لم يحتج ديرميد وجرينه إلى سؤال بعضهما البعض إذا ما كانا يريدان البقاء في الكوخ. لقد بقيا فيه، ليس لبضعة ساعات كما في المرات السابقة، وليس لليلة واحدة، بل بقيا.

مرت أيام ليست كأيام الخريف المعتادة، كانت خادعة بدفئها الذي كان يشبه دفء الصيف. في أحد تلك الأيام أمسكت جرينه بأول دجاجتين من دجاج الماء العائد من الشمال وأخذت تنزع عنهما الريش، بينما كانت تسمع ديرميد وهو يقطع أخشابا على المنحدر أعلى الكوخ ليخزنها للشتاء. لم يكونا قد تحدثا في أمر بقائهما حتى الشتاء، لكن كليهما كان يأمل ذلك. فقد كانا يستخدمان الشبكة والقارب

في صيد الأسماك بكميات تفوق حجم استهلاكهما. وكانا إما يجففانها على الأحجار أو يقومان بتعليقها داخل المدخنة. سارت الأمور كلها بشكل جيد. كانت الشمس تدفئهما، بينما يتلألأ الخليج الضيق في نورها.

حملت جرينه الدجاجتين بعد نزع ريشهما إلى داخل الكوخ، ثم نزلت إلى الماء. سرت الريح خلال شعرها وفرقته عن بعضه، ثم دفعته حول عنقها وفي وجهها. خاضت جرينه في المياه، وانتظرت الأمواج لتواجهها بقدميها وهى تبدل الواحدة تلو الأخرى. كانت سعيدة والأمواج تطال ساقيها، وتصعد أكثر فأكثر إلى أعلى كلما خاضت أكثر في المياه. نظرت جرينه إلى المنحدر أعلى الكوخ، لكن ديرميد لم يكن ظاهرا. خلعت ملابسها، ورمت بقميصها وحزامها على الرمال خلفها، ثم أسرعت إلى داخل المياه. كانت تريد أن تصرخ من فرط سعادتها.

وفجأة رأت جرينه ديرميد واقفا، ليس على المنحدر، بل على الشاطئ، على مسافة قريبة جدا منها. اندفعت نحوها موجة جديدة فمدت ذراعيها ناحيتها وكأنها تريد أن تغطى جسدها بالزبد الذي تطاير إلى أعلى حتى بلغ كتفيها، ثم انسحب مرة أخرى وتركها واقفة مكانها.

أدارت جرينه رأسها إلى الخلف وهى تقول: "الأمواج أكثر شجاعة منك يا ديرميد!"

أدركت جرينه معنى ما قالت، بعد أن خرج الكلام من فمها. لم تجرؤ على النظر مرة أخرى إلى الخلف. فقط سمعت ديرميد آتيا. رفع ذراعيها وضمها إليه، ثم جعلها تستدير نحوه. أحست بفمه وبيديه. رفعها عاليا، فصاحت: "ديرميد! ديرميد!". بعد ذلك حملها إلى داخل الكوخ، إلى الفراش.

"ديرميد!" وضعت يديها حول رقبته ولم تقاومه.

انكسرت حدة الشتاء كما يحدث كثيرا على شاطئ المحيط الأطلسى. فقد انقضت سريعا فترة تساقط الجليد ونزول البرد، حتى وإن ظلت الريح عاصفة. كذلك لم يستمر الصقيع طويلا. لكن في المقابل كان الضباب الكثيف غالبا ما يغطى الخليج والشاطئ لأيام طويلة.

لم يعثر أحد على ديرميد وجرينه، ولم يفزعهما شىء، حتى أنهما أسميا هذا الشتاء 'بوقت السعادة الطويل' .

المنبــوذان

رحل الشتاء نحو الشمال مصطحبا معه الأوز البري. وتأهبت طيور النورس لترقد على البيض. سرعان ما غمرت الكوخ الرائحة النفاذة لأشجار القندول.

في ذلك الوقت ظهرت سفينة في الخليج، رآها ديرميد وهي قادمة من الجنوب أثناء تواجده بالخارج لصيد الأسماك. جدف بسرعة عائدا، وتسلق المنحدر أعلى الكوخ كي يستطيع مراقبتها بشكل أفضل.

تجولت السفينة، وسارت على مقربة من الشاطئ. ثم أنزلت قلاعها وبدأت ترسو. لم يتركها ديرميد تغيب عن نظره. كم هو عدد الرجال الموجودين على متنها؟ أخذ ديرميد يعدهم.. ستة، سبعة، ثمانية. ثلاثــة منهم كــانوا يحمــلون سيــوفا في أحزمتهم، والآخرون كانت معهم سكاكين. كــانوا يلبســون تنانير، أما صدورهم فكانت عارية.

ترى عم يبحثون في هذا الخليج المهجور؟ انشغل بال ديرميد بذلك الأمر. إن كانوا قد جاءوا من أجلنا، فسيبحثون عنا حتى يجدونا، إن لم يكن اليوم، فسيكون غدا.

نزل إلى الكوخ وقال لجرينه: "املأي الحقائب باللحم يا جرينه. خذي معك القدر ورمح الصيد واختبئي بين أشجار القندول"

نظـرت إليه وقد تملكهـا الفزع. قالت: "دعني أبقى بجانبك يا ديرميد"

"لا، اصعدي يا جرينه."

وضع ديرميد السيف ورمح القتال بجانب الباب وخرج. وعند الشاطئ قام بسحب الشبكة من داخل القارب، ثم رمى الأسماك في الرمال. استغرق في ذلك وقتا طويلا. فقد قطع رؤوسها بحذر، ونظفهـا مـن الداخل، ثم وقـف يشـاهد طيور النورس وهي تتقاتل على أحشائها.

قبل أن يظهر راكبو السفينة، كانت الريح قد حملت أصواتهم إليه. سمعهم وهم يقولون 'ديرميد' عدة مرات. إذن فقد صدق ظنه.

لم يمض بعدها وقت طويل حتى رآهم آتين، ليس كلهم، بل فقط الثلاثة الذين كانوا بالسيوف.

نادى أحدهم: "يا صياد! هل تسكن في هذا الخليج؟"

"نعم، لِمَ تسألني عن ذلك؟"

"إذا كنت تعرف المكان جيدا فلا بد أنك تعلم ما إذا كان يقيم هنا محارب مع امرأة شابة؟"

"توصي التقاليد في بلدنا بأن يذكر المرء اسمه أولا قبل أن يوجه أسئلة."

ضحكوا بشدة، ثم أشار واحد منهم إلى سيفه قائلا: "في المعتاد أذكر اسمي دائما بهذا، لكن قتلك لن يفيدنا بشيء."

وصاح الآخر الذي كان يقف على أقرب مسافة من ديرميد: "وتقاليد هذا البلد لا تعنينا."

صرخ الأول في وجههما قائلا: "لا تروعوه". كان يغمز بإحدى عينيه كلما تحدث. "عليه أن يدرك ذلك بنفسه. كما أننا نريد أن نعرف منه شيئا. البر هو بيتنا. والبر يمتد فوق قناة عريضة" قال: "قناااااة عريييضة" وهو يمد ذراعيه. ودّ ديرميد لو يضربه بقبضته في وجهه. "نحن على البر نعرف كل ميناء، وفي كل ميناء يعرفنا الجميع. فهنا توجد لفة جميلة من القماش، وهناك يوجد برميل من

النبيذ الجيد، وكثيرا ما نجد أيضا حليا ثمينا. لذلك يتوجب علينا أحيانا أن ننتقل سريعا، إلى بلدك هنا، أو حتى ألبا، البلد المجاور لبلدك."

قاطعه ديرميد بقوله: "لا تتحدث إليّ وكأنك تتحدث إلى طفل صغير. فلتخبرني بسبب مجيئكم."

"كما تريد أيها الصياد. ربما تكون قد سمعت في يوم من الأيام بفين ماك كومهال، أعظم بطل حرب عرفه بلدك. اختطف أحدهم امرأته، امرأته الجميلة الشابة – ذلك الدهل العجوز!" فتحوا أفواههم مرة أخرى وضحكوا ضحكات كالعواء.

بعدها صاح الاثنان الآخران: "لم يكن ذلك ليحدث لنا!"

"والآن هو يريد استردادها، تلك الشقراء الجميلة، هذا بالإضافة لرأس المختطف. وفين العجوز على استعداد لأن يدفع بعض الأموال من أجل ذلك. أرسلت ثلاث من السفن التابعة لنا لهذا الهدف، لكننا افترقنا عن السفينتين الأخريين. ليس لأننا نود أن نعيد إلى أحضانه فتاته الجميلة بأقصى سرعة، لا، لا. إذا كانت بالفعل بهذا الجمال الذي نسمع عنه، فسنأخذ وقتنا. لكن المكافأة كما تعلم.. نريد أن نحصل عليها بمفردنا. ولن يضرك شيء أيضا إذا أوصلتنا إلى الاثنين، أو ألمحت لنا بشكل مؤكد عن مكانهما."

"أنتم بالتأكيد تتحدثون عن ديرميد ماك دون، وعن جرينه زوجته. نعم، أستطيع أن أوصلكم، لكن ليس في هذا الوقت. لا بد أن ننتظر حتى المساء لكي لا يرانا ديرميد ونحن قادمون فيختفي قبل أن نصل إليه."

قال أحد الرجال: "ما زال وقت طويل حتى المساء."

أكد ديرميد على كلامه: "هذا صحيح. لكننا يمكن أن نُسلي أنفسنا جيدا بكأس من الميد."

"ميدا!" – "ميدا!" – "ميدا!" أخذ كل واحد منهم يصيح بصوت رنّان أكثر من الآخر، ثم انخرط جميعهم في الضحك. "نشرب الميد فقط في حالات الضرورة القصوى. لدينا شيء أفضل على متن السفينة"

نزل اثنان منهم الشاطئ إلى حيث كانت السفينة راسية، بينما ظل الرجل الذي يغمز بعينه مع ديرميد.

"إنك تعيش بمنأى عن ضربات السيوف". هكذا بدأ الرجل الحديث. "أنت لا تعرف ما الذي يبذله فين ماك كومهال من أجل تلك

المرأة. يستميل الناس في جميع أنحاء البلاد، وكل فرد يريد أن يحصل على المكافأة."

سأله ديرميد: "وما هو موقف الملك المعظم من هذا الأمر؟"

"موقفه؟" لا أعلم. "هو لا يمنع فين عن أي شيء، لكنه أيضا لا يسانده". أخذ يضحك، وبدا أثناء ذلك وكأنه أعور.

رأيا الاثنين الآخرين وهما عائدان. كانا يلهثان وهما يدحرجان برميلا صغيرا أمامهما. كان كل واحد منهما يركله بقدمه مرة.

قال الرجل الذي يغمز بعينه: "الآن سوف تحصل على شراب لم تتذوقه في حياتك من قبل!"

رد عليه ديرميد: "ربما تكون محقا". بعدها شربوا، وما أكثر ما شرب الثلاثة! فقط ديرميد كان يفرغ كأسه من محتواه في الرمال عندما لم يكونوا منتبهين. وحين حل الظلام، كانوا في الحالة التي أرادها لهم. كانوا يتحدثون فقط عن قطع الرأس ويتدافعون للقيام.

اصطحبهم ديرميد إلى الكوخ عبر طريق طويل، ضيق في نهايته، يحده الماء من الناحية اليسرى، والمنحدر من الناحية اليمنى.

قال: "اتبعوني ببطء. أريد أن أتحقق بمفردي، إذا كان الاثنان بالكوخ"، ثم تقدمهم بسرعة. سمعوه وهو يدق الباب، ثم رأوه وهو

يختفي عنده. بعدها بوقت قصير كان ديرميد يقف أمامهم مرة أخرى، وفي يديه سيفه ورمحه القتالي.

صاح قائلا: "إن قائد رجال فين قد تقاتل مرارا مع قراصنة. تعالوا إلى هنا، أنا ديرميد!" فاض كل الغضب الذي اختزنه في الساعات السابقة. "تعالوا إلى هنا لتحصلوا على مكافأة فين!" بعد أن قال ذلك، انقض عليهم.

باغتهم مستغلا اللحظة. كان يصيح وهو يضربهم: "من أجل جرينه! فروا إلى سفينتكم! لماذا لا تفرون؟ أبحروا إلى فين، أبحروا، أبحروا! وانقلوا له التحية من قائده! قولوا له إن ديرميد ما زال كما هو. قولوا له إن ديرميد فعل ذلك من أجل جرينه!"

سقط الأول. وبضربة أسقط ديرميد السيف من يد الثاني ودفعه إلى الماء. ثم رمى رمحه القتالي بين ساقي الثالث.

"هل اكتفيت الآن يا من تغمز بعينك؟ اهرب من هنا، اهرب إلى سفينتك حتى يعرف فين بالأمر. هيا، لنذهب معا". أمسكه ديرميد من شعره، ثم رفعه من على الأرض ودفعه أمامه.

قال الرجل وهو يتأوه: "سوف تدفع حياتك ثمنا لذلك! فهناك رجال كثيرون على ظهر السفينة".

قال ديرميد: "هم خمسة. لكن إذا جاءوا فسأبدأ بك".

أخذ يجر الرجل على امتداد الشاطئ.

ثم نادى: "هه، يا من أنتم موجودون على ظهر السفينة! تسلموا رئيسكم، أما الآخرون فقد ماتوا".

تأهب الرجال لنزول سلم السفينة.

صاح فيهم ديرميد قائلا: "قوموا برمي سكاكينكم في الماء!"

لم يحركوا ساكنا.

"افعلوا ما آمركم به. أنا أراكم جيدا!"

نزل أحد الرجال من على السلم، وهو محتفظ بسكينه في حزامه. فانقض عليه ديرميد وضربه حتى سقط الرجل في الماء وغرق.

صاح ديرميد: "من التالي؟"

سقط في الماء سكينان. بعدها نزل رجلان من على السلم، واحد تلو الآخر.

"خذوه!" وأثناء مرورهما من أمام ديرميد حاملين رئيسهما صاح بهما: "لا تنسيا أن توصلا لفين هذه الرسالة: أن ذلك قد حدث من أجل جرينه!"

منذ ذلك المساء صارا يرتحلان من جديد. مر عليهما الصيف، والشتاء، وكذلك الربيع والخريف خمس مرات. كانا يعدان الخمس سنوات الأولى تلك، ثم توقفا بعدها عن العد حتى لا يصعبا الأمر على نفسيهما أكثر من ذلك. كان كل ما يهمهما هو أنهما يعيشان، وأنهما باقيان معا، ولا شيء سوى ذلك.

كان العام الأول هو الأسهل، وقد منحهما السعادة لوقت طويل. في ذلك الحين بدا لهما الشتاء في الكوخ كأنه حلم جميل. وفي للسنوات اللاحقة، عندما كانت قوى جرينه تخور، كان ديرميد يستحضر ذلك الشتاء الأول ويقول لها: "ستصبح الأمور هكذا ثانية يا جرينه، ستصبح مجددا كما كانت بالماضي". وكانت جرينه دائما تستمد قوتها من جديد من تلك الكلمات. فكانت فقط تومئ برأسها، ثم تضع ذراعيها حول كتفيه وتقبله.

ظل فين يطاردهما، ففرا من مونستر إلى كونّاخت، ومن كونّاخت إلى أولستر، ثم عادا مرة أخرى من أولستر إلى كونّاخت. كذلك فرا من مونستر إلى لاينستر. فقط أرض مايد هي التي لم تطأها قدماهما أبدا. بالنسبة لجرينه لم تعد هناك مايد، كانت هي الهاوية التي عليهما أن يحذرا منها.

على مدار تلك السنوات، لم تكن هناك غابة لم يتعرفا عليها، ولا مستنقع، ولا واد لم يمرا به في رحلة هروبهما، ولا جبل، ولا بحيرة لم يقضيا في أي وقت من الأوقات ليلة بالقرب منها. أصبحا يبحثان عن ملجأ لهما في الكهوف، منذ أن أشعل العديد من رجال فين النيران في الكوخ وهما بداخله. ما أكثر المرات التي سمعت فيها جرينه ديرميد وهو يصرخ: "من أجل جرينه! من أجل جرينه!" وما أكثر القتلى الذين شاهدتهم! لم ينفعها أن تطرد الأفكار من ذهنها، أو أن تسد أذنيها أو تغلق عينيها.

لم تكن أمامها نهاية لذلك. فقد كان فين مستمرا في مطاردتهما، ومعه كل الآخرين من إرين. فماذا كان يعني لهما حب ديرميد وجرينه! ليس أكثر من أن يلعنوهما مساء وهم جالسون حول المواقد المشتعلة، وأن يبالغوا فيما يُحكى عنهما. يا لهؤلاء الرجال المتخمين! ولزوجاتهم المستقيمات اللاتي يقبعن في بيوتهن الآمنة، ويصورن وهن مستلقيات على فرشهن الدافئة ما يقوم به ديرميد وجرينه! حين كان يأتي فين أو يرسل رجاله، كانوا كلهم يجتمعون من أجل ذلك.

لم يكن ديرميد وجرينه يتصوران أن يناما تحت سقف بيت من الحجر، أو أن يضمنا وجبة في كل يوم، تضم: اللحم، واللبن، والزبد وأقراص الخبز.

كانت أكثر أوقات الشدة تأتي كل مرة في الشتاء. لم يكن الجوع بقدر ما كان البرد هو سبب عنائهما. أي شتاء كان الأكثر بردا: هل كان الأول الذي مر منذ وقت بعيد، أم الثاني، أم الثالث، أم كان ذلك الذي مر عليهما في العام السابق؟ لم تعد جرينه تعرف. لكن هذا الشتاء كان الأسوأ حتى الآن. فقد مرضت فيه. أصابتها الحمى في إحدى الليالى، وهي واقفة في ركن صخري، مما جعلها ترى نجوما وزهورا كثيرة، وترى أيضا فنجوالا بجانبها. كان الأمر سهلا وجميلا. لكن العطش أجهدها كثيرا، ولم يجد ديرميد ماء. كان سبب ذلك أنه لم يستطع الذهاب وتركها وحدها. فقد كانت تستيقظ وهي محمومة، وتجري إلى خارج الكهف. لهذا السبب أيضا لم يكن يستطيع أن يبحث عن الخشب اللازم لإشعال نار قوية. كما أنه لم يستطع الصيد بشكل صحيح، حتى كاد يموت جوعا.

كم عذبها العطش حينها! لكن فجأة صار فمها رطبا. لم تكن شفتاها تتحركان في البداية، ولم تكن تشعر بلسانها. أخيرا أصبحت قادرة على ابتلاع ريقها. ظنت أنه ثلج، فقد أحست وكأن طعمه أبيض بلون الثلج. كان الجليد يتساقط. وقد أذاب ديرميد بالفعل بعضا منه. ظلت تتجرع منه، ثم خلدت للنوم.

لكنها استيقظت إثر شعورها بأن بواطن أقدامها تحترق. لم تكن غير معتادة على ذلك الألم، فقد كان تشعر به ذاته حين كانا يهربان من فين على مدار عدة أيام. أما في هذه المرة فقد أحست به من أثر سخونة النار على أقدامها. سمعت جرينه أصواتا خافتة بالقرب منها. فزعت منها بشدة، لدرجة أن تلك الأصوات ظلت في أذنها حتى اليوم. أرادت أن تنهض، لكنها استطاعت فقط أن ترفع رأسها، وتنظر في وجه ديرميد.

بعد برهة من الزمن أدركت أن هناك شخصا آخر في الكهف. "آلا؟" لكن ديرميد هز رأسه نافيا. "آنجوس؟" أيضا لا.

قال ديرميد: "إنه صبي، واسمه موادهان".

"هل يجب أن نرحل يا ديرميد؟"

لا، لم يضطرا إلى الرحيل. أما موادهان فقد كان يجيء ويذهب. كان يحضر حليبا وخبزا، وكذلك لحما مطهيا، وبيضا. كان موادهان يجلس أمام مدخل الكهف ويراقب الأمور، كي يستطيع ديرميد أن يبقى إلى جانب جرينه.

بالنسبة لموادهان، لم يكن الناس يتساءلون كثيرا من أين يأتي وإلى أين يذهب. فقد كانوا يعدونه من البلهاء، كما اعتادوا على أفكاره التي اتسمت بالغرابة. في أحد الأيام وقف في الكهف ومعه قميصان

من الصوف. كانا خشنين ورماديين بالقدر الذي سبق وأن رأته جرينه، ولكن لم تلمسه حتى ذلك الحين. غطى القميصان جسدي ديرميد وجرينه حتى أقدامهما، كما كانت لهما أكمام طويلة، فأمداهما بدفء شديد.

سألت جرينه موادهان: "لم تفعل ذلك من أجلنا يا موادهان؟"

ابتسم الصبي وقال: "لأسباب مختلفة. أنتما تعاملانني بشكل جيد. لم تطرداني أبدا، وكذلك لم تقولا لي أبدا، أنني بدون عقل. أنتما تعرفان أنني أمتلك واحدا، أليس ذلك صحيحا؟ إنه موجود هنا في صدري. أحس بذلك حين يخفق. هو لا يخفق دائما، لكن قبل عدة أيام عاد للخفقان عندما وجدت زوجك خارج الكهف بين الحياة والموت. إن عقل معظم الناس موجود تحت شعر الرأس، لكنه في ذلك المكان لا يستطيع أن يخفق بصوت عال جدا. فرأس الإنسان أصغر بكثير من صدره، كما أن به أعين يبصر بها، وأذن يسمع بها كل شيء، وبه قبل كل شيء الفم الذي يحتاجه في الطعام. فكيف يمكن للإنسان مع كل هذا أن يشعر بالخفقان؟ – لكنكما مثلي، وإلا ما كان الجميع ليطردونكم"

في صباح أحد الأيام أتى موادهان بصنادل لديرميد وجرينه، وقال لهما: "من الأفضل أن تستأنفا الآن الرحيل. فقد بدأ الفضول يصيبهم".

كانت جرينه بالكاد تستطيع الوقوف على قدميها.

قال لها موادهان: "أنا قوي. سأحملك على ظهري حتى نتقدم إلى الأمام بشكل سريع".

ظل على مدار يومين يحمل جرينه ويسير بجانب ديرميد. أحيانا كان يصفر، وأحيانا أخرى كان يغني: "أحبطت خطتهم، أحبطت خطتهم، أحبطت خطتهم.." أو كان يغني: "عقل في الرأس، والرأس صغير، الرأس صغير، الرأس صغير.."

في اليوم الثالث، كان موادهان قد اختفى. ومنذ ذلك الحين لم يتحدثا خلال السنوات الطوال مع أي شخص آخر.

كانا في ذلك الوقت يتقدمان ببطء شديد! فقد ظلت جرينه فترة طويلة تستند على رمح الصيد الخاص بديرميد، بينما كان هو يخطو خطوات متثاقلة وهو ممسك بسيفه ورمحه القتالي. تضورا جوعا كما لم يحدث لهما أبدا من قبل.

ألم يكن ذلك هو نفس الشتاء الذي لجآ فيه لفترة إلى العربة، عربة القتال المهجورة، التي وجداها منقلبة وسط الأشجار بالقرب من نهر صغير؟ – لا، كان ذلك هو الشتاء الذي تساقط فيه الجليد بغزارة، والذى لم يعانيا فيه من الجوع. فقد عشش ما يكفي من

الدجاج المائى على الماء، كما كانت حيوانات الصيد تفقد قوتها بسرعة فيتم صيدها بسهولة.

ها هو إذن شتاء آخر أوشك على الانتهاء. تمنت جرينه أن يحدث ذلك سريعا، وتمنى ديرميد لو يكون ذلك غدا. كانا يدركان تماما أنهما منبوذان، ويدركان أيضا أنهما سيعانيان حتما من الجوع. كذلك كانا يعرفان أنه مع حلول الربيع سيعود رجال فين للبحث عنهما في جميع أنحاء إرين. لكنهما لم يعد في استطاعتهما تحمل البرد أكثر من ذلك، فقد عانيا بشدة.

تحــول الشمس

في هذا العام جاءت بداية الربيع في إحدى الليالي. هبت في المساء عاصفة شديدة على المستنقع، وصارت أطراف الغاب بيضاء. لكن بعد منتصف الليل تحولت الريح. ظلت تقفز مثل كبش فرح، وتتأرجح فوق أغصان الأشجار الصغيرة، وتحرك عيدان الغاب كأنها تعزف على آلة كمان. كانت دافئة مثل الحليب الخارج من ضرع بقرة. نادرا ما كان يبدأ الربيع بهذه القوة. كم تحسنت الأمور منذ تلك اللحظة. فقد صار العثور على فراش أمرا سهلا، وأصبحت هناك أسماك كثيرة في الأنهار، وامتلأت أعشاش الطيور ببيض كثير. مع كل مرة سارت فيها الأمور بيسر، كان ديرميد وجرينه يشعران بأمل. لم يأملا في شيء محدد، وربما اعتبرا ذلك الأمل ضربا من الحماقة، لكن بالرغم من ذلك ظل الأمل موجودا.

لا بد أن عيد البيالتين قد اقترب. كانا قد وجدا مأوى لهما في منتصف ارتفاع أحد الجبال، في مكان ليس ببعيد على الإطلاق من إحدى المزارع الواقعة في منخفض تحت الجبل. بدت المزرعة

ضخمة وفخمة، يحيط بها سد عريض من الحجر، شيد أيضا من حوله سياج قوي. كانت الأبقار طليقة، والأحصنة ترعى وسطها. وعلى الناحية الأخرى من المنخفض سار قطيع من الغنم ببطء. امتلأت الساحة بقش كثير، وأخذ شباب كثيرون يجرّون أخشابا من داخل المزرعة إلى المرج. إنه البيالتين! لا بد أن عيد البيالتين غدا.

ضحك ديرميد وقال: "نحن في المكان المناسب! فرجال فين ليسوا موجودين، وساكنو المنخفض لديهم ما هو أفضل من البحث عنا".

"تُرى هل سيتعرفون علينا يا ديرميد؟"

نظر ديرميد إلى جرينه في دهشة، وقال لها: "كيف لهم ذلك، ونحن لن نذهب إلى هناك. أم أنك تريدين الذهاب؟"

أجابته فقط بقولها: "آخ، ديرميد". أثناء مشاهدتهما للشباب الذين كانوا يصنعون عرائس القش الكبيرة في المزرعة، لم يتمنيا شيئا أكثر من ألّا يكونا منبوذين بعد ذلك، وأن يقضيا أمسية كاملة مع أناس يتحدثون، ويضحكون، ويشربون، ويرقصون، فإن لم تكن أمسية كاملة، فلتكن بضع ساعات أو حتى أقل، ربما بضع لحظات أو حتى لحظة واحدة فقط.

قبل بزوغ الشمس تسللتْ جرينه من الفراش. وحتى لا توقظ ديرميد من النوم، انتظرت حتى ابتعدت قليلا عنه، ثم قامت بنفض أوراق الأشجار من قميصها الصوفي. كانت قد سمعت بالأمس صوت خرير ماء، فأرادت أن تبحث عنه وتنتظر عنده شروق الشمس.

البيالتين! آخر مرة في تارا! كان 'جمال البجع' يجري بخفة ورشاقة أمام العربة. وكانت هي تشعر بدفء آلا التي جلست بالقرب منها. هوه حبيبي، هيه حبيبي.. وجدت جرينه مجرى ضيقا للماء، فخلعت قميصها. بدت السماء من وراء الجبل خضراء. هوه حبيبي، هيه حبيبي.. شعرت جرينه بالبرد الشديد لكنها تحملته أيضا هذه المرة. انتشر حصى أبيض على جوانب الماء، ونما نبات يشبه الجرجير. هوه حبيبي.. أدخلت جرينه قدميها في الماء. لم يكن عميقا بالقدر الكافي لكي تغطس فيه، فاستخدمت يديها لتضع الماء على جسدها. وعندما رأت الشمس وكأنها ترقص فوق الأمواج، مالت إلى الأمام، ونظرت في الماء، ثم ثبتت بصرها فيه. لم تستطع أن تستوعب ما رأت فتراجعت إلى الخلف، وقالت: "هكذا أبدو الآن، هكذا إذن" لم نكن نريد أن نعد السنين، فارتسم عددها على وجهي.

عادت إلى مأواهما. كانت تريد أن تضحك، على نفسها، لكن لم تتمكن من ذلك. أرادت أن تبتلع الصدمة، لكنها أحستْ بحلقها

ضيقا. غطـت وجههـا بيديها، ثم نزلـت على الحصى وأخذت تبكي. سيطر عليها حزنها لدرجة جعلتها تشعر بأنها لا تستطيع التوقف عن البكاء.

وجدها ديرميد على تلك الحالة.

في المساء، عندما بدأ الرقص حول النار في المنخفض الواقع تحت الجبل، انخرط ديرميد وجرينه وسط الشباب. كان اليأس قد ظل مسيطرا على جرينه طوال اليوم، مما جعل ديرميد يفكر في شتى الوسائل التي يمكن أن يساعدها بها في التغلب على هذا الشعور. أخذ يراقب العربات الكثيرة التي أتت من جميع الاتجاهات إلى المزرعة، ثم قرر أن يقدما على الأمر.

حين أشعلت النيران، انطلقا. لم يلفتا الأنظار، ولم يلحظهما أحد. لم يريدا لحما من على الأسياخ، ولا خمرا من البرميل. أرادا فقط أن يرقصا معـا، للمرة الأولى. التصقـت جرينه بذراع ديرميد. كان يديرهـا ويلفها، وعينـاه تبرقان! كان ينظر إليها، وكان يمسكها بقوة!

نسيت جرينه يأسها، وغلبتها السعادة الآن.

"ديرميد"

"جرينه!"

كانت ترقص بخفة متناهية، وتدور برشاقة! وكان شعرها الذهبي يتطاير، حين تميل رأسها إلى الخلف! كما كانت رقبتها تلمع حين يسقط عليها ضوء النار، ثم ينحسر عنها، فيغمرها الظل، ثم يعود إليها الضوء مرة أخرى...

تقابلتْ نظرات ديرميد مع نظرات رجل آخر، مما جعله يجذب جرينه ناحيته ويهمس لها قائلا: "إنه أحد رجال فين! استمري في الرقص، لا تتعثري". ثم ضحك، وقال: "علينا أن نهرب. لست متأكدا إن كان قد تعرف عليّ. لا بد أنه رأى سيفي. استمري في الرقص!"

ظلا يرقصان ويرقصان – وكأنهما يقفان على جذوة.

استطاعا أن ينسحبا من الدائرة دون أن يلفتا الأنظار إليهما، كما اعتقدا. لكن بالرغم من ذلك تركا كل شيء على الفراش من خلفهما: القدر ورمح القتال، وحقائب السرج، واستكملا رحلة الهروب.

بعد مرور يومين على عيد البيالتين توجهت جرينه إلى المزرعة. كانت وحدها، وكان يوما مشرقا. عبرت السياج، ثم بوابة

السد الحجري، ثم الساحة. رأت باب المنزل الحجري الكبير وفكرت أن تعبره. لم تشعر وهي في خضم خوفها بأن قدميها قد عبراه بالفعل.

على مقعد خشبي بجوار الباب كانت هناك سلة مصنوعة من الخيزران المجدول. توقفت جرينه، وأزاحت المنديل الصوفيّ الخفيف لتجد طفلا في السلة، طفلا ضئيلا، عاريا. كان لونه ورديا وجسده مستديرا، وكان واضعا قبضتيه الصغيرتين أثناء نومه إلى جانب أذنيه. إنه طفل!

لم تستطع جرينه المضيّ قدما، بل مالت في تَراخٍ على الحائط.

"عَمَّ تبحثين هنا؟"

أدارت جرينه رأسها لترى سيدةً ذات شعر داكن تقف عند الباب.

"ماذا تريدين هنا؟"

لم تستطع جرينه رفع عينيها من على الطفل. أخذت تفكر: ماذا كنت أريد هنا؟ استقامت في وقفتها وقالت: "أردت أن أطلب القليل من الحليب، وقطعة لحم مطهيّ، وقطعة قماش، حتى أستطيع تضميد جرحه". فجأة رأت جرينه أمام عينيها دوائر كثيرة متعددة الألوان، بها الأزرق والأصفر والأحمر والأسود. وكانت هناك ضوضاء تدوى في أذنيها.

أمسكت السيدة بجرينه ونادت خادمتها. وعندما عادت جرينه إلى رشدها وجدت نفسها على مقعد في غرفة الجلوس، والسيدة تجلس بجوارها وتراقبها. لم تدرِ جرينه إلى أين تنظر.

حاولت أن تصرف انتباه السيدة عنها فقالت لها: "أردت بشدة أن أطلب منك كل شيء، وبالأخص قماشا. يا حبذا لو تكون قطعة ناعمة مثل تلك التي تغطين بها طفلك".

سألت السيدة: "من أين تأتين؟"

"من أين؟ لا أعلم".

"من أنت؟"

"من الأفضل ألّا تعرفي". أغمضت جرينه عينيها وهي جالسة لتتفادى نظرة السيدة.

"سوف أساعدك يا جرينه. صار من الصعوبة بمكان التعرف عليك، لكنني عرفتك. ولو كنتِ أردتِ النظر إليّ لعلمت أيضا من أنا".

هبتْ جرينه واقفة بعد أن تغلبت على الوهن الذي كان قد أصابها.

"لا تخافي يا جرينه. أما زلت لا تعرفينني؟"

"أنت – أنت – لا، لا أستطيع أن أتذكركِ. لكني متأكدة من أن لك صلة بتارا".

"بآتان، أكثر منه بتارا".

"إمير؟"

"نعم، أنا إمير".

"إمير، لو تساعدينني سريعا، أنا سأذهب حالا. لا يجب أن تتعرضي للخطر بسببي".

"خطر؟ أي خطر؟"

"رجال فين".

"آه، رجال فين، لقد قمنا باستضافتهم وتقديم الطعام لهم! ولا يجب أن ينتظروا أكثر من ذلك، لا هنا ولا في أى مكان آخر".

"لكنهم يشعلون النار في كل شيء، بل ويفعلون أكثر من ذلك".

"توقفوا عن فعل ذلك منذ وقتٍ طويل. ما لنا وجنون فين! منذ أن أصبحت كل المزارع تحت حماية الملك العظيم، صاروا يتعاملون بحرصٍ شديد. ألَا تعلمين كل ذلك يا جرينه؟"

"من أين لي أن أعلم؟ منذ سنين لم أتحدث إلى أحدٍ غير ديرميد".

"لم تتحدثي مع أحد غيره؟ منذ سنين؟ ألا تعلمين إذن أن الملك المعظم قد شيّد لك بلاطا في تارا؟ كل شخص يعلم ذلك الأمر!"

"مِمَن كنت سأعرف وأنا هاربة؟"

"عليك أن تعودي لبيتك يا جرينه!"

"أعود للبيت؟" لم تعد تعرف بعد تلك السنين الطويلة معنى هذه الكلمة. فهي لم تكن تحتاجها ولم تكن تفكر فيها. "أعود للبيت" رددتها مرة أخرى. "مع ديرميد؟"

"ليس معه".

أومأت جرينه، ثم قالت: "فليبقَ إذن كل شيء كما هو".

أمرت إمير الخادمة بصوت مرتفع: "عربة! أخبريهم بأن يجهزوا عربة"

"دعكِ من هذا يا إمير، فأنا لن أذهب أبدا بدون ديرميد".

"سنحضر ديرميد الآن إلى المنزل يا جرينه. أليسَ به جرح؟"

قالت جرينه: "نعم، جَرَحه رجال فين قبل يومين، في مساء عيد البيالتين. وقد نزف دما كثيرا".

"إذن لنسرع. أين العربة؟" هرولت إمير إلى الباب وتبعتها جرينه، دون أن تفهم كل ما كان يحدث.

قادت إمير العربة، بينما كانت جرينه تجلس إلى جوارها وتدلها على الطريق. لم تتحدثا، لكن إمير كانت تنظر خلسة من الجانب إلى جرينه بين الحين والآخر. أهذه السيدة الهزيلة، متواضعة المظهر هي ابنة الملك كورماك التي كان الناس في جميع أنحاء إرين يتحاكون بجمالها؟ أخذت تتذكر كيف كانت جرينه تقف في عربتها التي يجري أمامها الحصان الأبيض.

فجأة قالت إمير: "أنت لا تعرفين كم كنت أحسدكِ في الماضي. ليس على ديرميد، ولكن على حبكما. تمنيت دائما لو كان آتان مكان ديرميد، وكنت أرى نفسي مكانك". صمتت قليلا، ثم استطردت قائلة: "خاصة في تلك الفترة التي توقف فيها آتان عن الحضور إلى ورشة الحدادة".

قالت جرينه: "قبل آتان كان لوتار".

"نعم، قبله كان لوتار، وبعد آتان كان هناك أكثر من رجل. هذا ما يحدث للإنسان عندما لا يأبه للحب بالقدر الكافي. ومع التنقل من

رجل لآخر تأخذ فترة السعادة في النقصان حتى يشعر الإنسان في أحد الأيام أنه قد اكتفى".

"لكنكِ ارتبطتِ في النهاية برجلٍ بعينه".

"ماذا يتبقى أمام الإنسان حينما يريد إنقاذ الجزء الباقي؟"

سألتها جرينه: "الجزء الباقي من الحب؟"

"الجزء الباقي من حلم الحب الحقيقي. فكل إنسان يحلم به، ويتمناه، ويحن إليه سواء اعترف بذلك أو لم يعترف. أنا اليوم على يقين من ذلك. لكني لم أكن صبورة حتى أنتظره. ولو كنتِ حذرتني آنذاك، لكنت سخرت منكِ. أن أحصل على الرجل الذي يعجبني.. كان ذلك ما أردته وقتها. وكنت أريد أن أختار بمنتهى الحرية".

"أنا لم أفعل غير ذلك يا إمير".

"لكنكِ كنتِ محظوظة بقدرتك على تحقيق حلم ديرميد أيضًا".

"محظوظة؟!" نطقت جرينه الكلمة وهي تنظر إلى نفسها من أعلى إلى أسفل. "نعم، حظيت بحظ كبير في السنوات الكثيرة الماضية".

ودت إمير لو تسحب كلمتها. أمسكت بيد جرينه وقالت لها: "لقد أفلتت الكلمة من لساني يا جرينه. منذ متى وأنت تعيشين هذه الحياة؟"

أمعنت جرينه التفكير، ثم قالت: "لا أعرف. كنا نعد السنوات حتى نهاية السنة الخامسة. بعدها توقفنا عن العد".

أخذت إمير تفكر وتحدث نفسها. استطاعت جرينه أن تحدد في كلامهـا بعض الأسماء لرجال. في النهاية قالت إمير: "منذ عامين حصلت عليه. لا بد إذن أن تكون عشر سنوات قد مرت على رحيلك عن تارا".

سألت جرينه: "عشر سنوات؟ عشر سنوات مع ديرميد؟" ثم نظرت إلى إمير. "لقد كنت بالفعل محظوظة بشدة" –

كانا لا يدريان ولا يستوعبان ما يصنع بهما. فقد استطاعا النوم بهدوء، وأصبح عندهما ما يأكلانه وما يشربانه دون أن يضطرا إلى الاهتمام بذلك بشكل خاص. كذلك كان الجو دافئا، ولم تعد ملابسهما مبتلة. وفي كل صباح كانت خادمة تأتي إليهما لتحضر لهما الخبز والزبد واللبن العاقد، بالإضافة إلى ماء للقدر، وخشب للنار. كما كانت تجهز لهما فراشهما، وتضمّد جرح ديرميد، وتمشط لجرينه شعرها. حصلا أيضا على معاطف، وقمصان، وأحزمة جديدة، وعلى صنادل لأقدامهما. صارا يتمتعان إذن بحياة جيدة.

كانا يعيشان في بيت صغير مبنى من الحجر، لا يقع بعيدا عن المزرعة. بحلول الظلام كان رعاة الماشية يسوقونها ويبقون بالقرب

من البيت كحراسٍ له. وفي مساء كل يوم، كان ديرميد وجرينه يذهبان إلى صالة بيت إمير لتناول الطعام هناك. كانت جرينه تحمل طفل إمير على ذراعها لتهدهده، وتحتضنه، ثم تضعه في السلة لينام عندما يحين موعد نومه. أما ديرميد فكان يجلس مع زوج إمير للعب الشطرنج. لم يتطرقوا إلى الماضي. كان هدف ديرميد وجرينه هو أن يتحدثا، وكان عليهما أن يتعلما من جديد كيف يفضيا إلى الآخرين بهمومهما.

في مساء أحد الأيام، بعد أن عاد ديرميد وجرينه إلى منزلهما الحجري الصغير، قالت إمير لزوجها: "سوف نرسل للملك المعظم خبرا عن ابنته".

"ماذا تنتظرين مِن وراء ذلك؟"

"إذا كان لا يزال يمتلك قلبا داخل جسده، فسيتخذ إجراء تجاه فين. وإن لم يفعل ذلك، فهو إذن لا يستحق إلا أن تقوموا يا أحرار مملكة إرين بقطع رأسه. فقيمة هذا الحب أعلى من قيمة أي عهد قطع".

وفي الصباح الباكر، انطلقت العربة من ساحة المنزل.

مرت خمس ليال، وفي الليلة السادسة أيقظ ديرميد من نومه قلق غريب. أخذ ينصت. لكن كل شيء من حوله كان ساكنا. أخذ يفكر بأن الأوقات الصعبة أصبحت تطارده حتى في أحلامه، ثم عاد واستلقى ثانية.

كانت جرينه تنام في هدوء. عاد إليها جمالها ثانية! وضع ديرميد رأسه على كتفها، فشعر بشعرها الناعم على وجهه. ضبط أنفاسه مع أنفاسها وعاد للنوم مرة أخرى.

في الصباح، حين فتح الباب كعادته، وجد فين واقفا أمامه ومعه جيش من رجاله. كان المنزل محاصرا من كل جهة.

صاح فين: "أصبحتَ غير حذرٍ على الإطلاق!" كان الإحساس بالنصر يقفز من عينيه، وقد علت الحمرة وجهه المجعد. "إن كرم مضيفيكما جعلك تشعر بالأمان أكثر من اللازم. وستدفع رأسك ثمنا لذلك يا ديرميد! منذ زمنٍ طويل جدا لم تشترك مع رجال فين في عراك. لقد نسيت كيف أنهم يمكنهم بسرعة إسكات بضعة حراس. لقد منعتَ عني زوجتي على مدار عشر سنوات يا ديرميد ذو كدمة الحب! هذه المرة لن تُفلت جرينه مني. وقبل كل شيء لن تهرب أنت منّي!"

اندفعت جرينه إلى جوار ديرميد وقالت: "لم أكن قط زوجتك، ولن أكون أبدا، حتى لو طاردتنا في جميع أنحاء إرين لعشر سنوات أخرى. ولو أن هذه الساعة ستجلب الموت لديرميد، فلتجلبه لي أيضا" نظرت جرينه إلى رجال فين الذين كانوا يقفون خلف ديرميد. "آه، أويسين، أنت أيضا معهم. ما زلت أسمعك عندما قلت في قلعة الملك:

‘لا بد أن يظل عهدنا قائما بالرغم من ذلك يا ديرميد’، وكأني أسمعها اليوم. هكذا كان كلامك يا أويسين، أليس كذلك، هكذا كان؟"

"وما زلت عند عهدي يا جرينه! فأنا هنا لأقف إلى جانبكما".

رفع فين السيف ليعصف بالباب، لكن أويسين جذبه إلى الخلف وهو يقول: "فكر يا أبي بما تقوم به. أنا أقف في صف ديرميد. فقد أثبت أنه يستحق زوجته أكثر من أي رجل آخر في إرين. دعهما يعيشان في سلام".

صاح فين: "لن يحدث ذلك أبدًا! حتى ولو اضطررت لقتالك أنت أيضا يا أويسين".

رد ديرميد: "كما تريد يا فين ماك كومهال". وعندما استدار ليمسك بسيفه سمع جرينه تصيح:

"هناك رجلٌ أعرفه يقف خلفك يا فين. كان ابنَ رجل لا ينتمي إلى الأحرار في قلعة الملك المعظم، وكان يجلس في ورشة صانع السروج. انظر، إنه لوتار، ها نحن نلتقي ثانية. هل ما زلت تتذكر كيف أننا تحدثنا عن الحب، أنت وأنا؟ كنت تحاجني بقولك ‘أنتم تستطيعون الحصول على كل شيء، أنتم ولدتم محظوظين’. لقد ولدت محظوظة لدرجة أنني لم أحظ على مدار عشر سنوات كاملة بساعة

هادئة، ولدرجة أنني ظللت أهرب لمدة عشر سنوات من أجل حبي. والآن تستطيع أن تضرب بسيفك. لن يكون الأمر صعبا عليك، فليس معي سيف". بعد أن قالت جرينه ذلك، خرجت من المنزل.

لم يتحرك أحد من رجال فين. حتى فين نفسه وقف مترددا حين رآها تتقدم نحوه. قفز أويسين أمامها، أما ديرميد فقد مشى خلفها دون أن يترك مسافة تفصله عنها.

حينئذ صاح فين في رجاله داعيا إياهم للقتال! تجمعوا كلهم وأغلقوا الطريق على الثلاثة. انهال أويسين عليهم ضربا. كان فين يرى ديرميد فقط، وديرميد أيضا لا يرى إلا فين. تقابل سيفاهما، فكان هجوم ديرميد أكثر توفيقا. أدت الضربة الأولى إلى سقوط السيف من يد فين، مما جعل رجاله يقفزون إلى جانبه. أثبت لهم ديرميد أنه ما زال القائد الأول. فتح أويسين أمامه طريقا لجرينه، وتقدم الثلاثة ببطء، بينما كان رجال فين يحيطون بهم من جميع الجهات. صمدوا وقاتلوا قدر ما استطاعوا، إلّا أن المزيد من رجال فين كانوا ينضمون إلى الموجودين، حتى رأى الثلاثة أنه لا سبيل لنجاتهم.

فجأة خفَّ الزحام من حولهم: فقد أسرع عمال المزرعة نحوهم، وأخذوا يضربون رجال فين حتى انحل الطوق من حول الثلاثة.

علا صوت سيدة تصيح: "افتحوا لهم الطريق! انقذوهم! فلتنقذوهم! لا تستسلم يا ديرميد! اصمدي يا جرينه! العربة في انتظاركم، عليكم أن تصلوا إليها!". كان هذا هو صوت إمير.

رأت جرينه زوج إمير. كان مستمرا في الضرب يمينا ويسارا حتى وصل إليها وحملها على ذراعيه تحت حماية عمال المزرعة. حملها إلى خارج دائرة المقاتلين.

"ديرميد! ديرميد!"

جدد صياحها الذي يملؤه الخوف قوته. صار يضرب من كان يتبع جرينه وظهره محميّ بظهر أويسين.

رأت جرينه العربة واقفة وأمامها حصان أبيض يتململ في وقفته، يحرك رأسه، ويجذب كسوته، ويصهل.

"جمال البجع!"

وصلوا إلى العربة، ووضعت جرينه بداخلها. عاد عمال المزرعة سريعا إلى جانب ديرميد وأويسين. ظلت المسافة بينهم وبين العربة تقصر أكثر فأكثر حتى وصل ديرميد إلى العربة، ودفعه العمال فوقها. الآن صار أويسين أيضا بجانب العربة، وحاول أن يمسك بها، لكنه وجد فين واقفا أمامه، رافعا سيفه.

"انتهى القتال يا فين ماك كومهال. اغمد سيفك في حزامك!"

كان صوتا أفزع الجميع. "في غابة كلانريكارد امتنع ابنك عن مساعدتك فقط. والآن هو يقاتل ضدك. لقد أعمتك الكراهية طوال عشرة أعوام، وعليك أن تهتم بتعلم الرؤية ثانية".

حملق فين في العربة ومعه كل من كان يتقاتل. لم يعد أحد منهم يحرك يده. لم يكونوا يرون سوى شخص ضخم يلفه معطف داكن. أيقن فين من كان يقف في العربة، بينما خمن الآخرون فقط.

"أنتظر عهدك يا فين بأن يعم السلام الآن".

"أعطيك إياه يا آنجوس من 'بروف نا بوينه'".

في قصر جرينه

كم كانت تلك الفترة مناسبة للموسيقيين المتجولين! لم يكن أحد منهم يستطيع أن يتذكر ما يشبهها. لم يشكوا قط من الأوقات السيئة، ولكن كما هي الحال الآن، لا، لم يعايشوا شيئا مشابها حتى يومهم هذا.

فقد تجمع الأطفال على جوانب الطرق ليشاهدوهم. كان ينتظرهم الجميع في كل مكان بفارغ الصبر، ولم يكن أحد يريد أن يتركهم يرحلون بسرعة. قدمت لهم أفضل أنواع الطعام حتى يعيدوا سرد القصة مرة أخرى! فقط عندما كانت القصة تصل للناس في بيوتهم، وعندما كان الناس يستطيعون رؤية المغنيين، ويحصلون على إجابات لأسئلتهم.. عندئذ فقط كانوا يصدقون أن المصالحة التي تمت بين الملك المعظم وديرميد حقيقة.

كان الناس يقولون: "كان الوقت قد حان لذلك!"

"لقد دعاهم إلى تارا، وجلسوا جميعا في قاعة الاحتفالات: الملك المعظم مع حاشيته وفين مع محاربيه".

سأل الناس: "وديرميد؟"

"ديرميد كان مع جرينه".

"أين كانت تجلس جرينه؟"

"بين ديرميد والملكة، التي لم تترك يد جرينه طيلة المساء".

"وأين جلس ديرميد؟"

على الناحية اليمنى، بجوار الملك. وعلى الناحية اليسرى جلس فين، ثم أويسين".

"وكيف كان فين؟"

"بدا وجهه وكأنه من الحجر الرمادي. كان واضحا للجميع، كيف كان صعبا عليه الجلوس في ذلك المكان".

"وديرميد؟"

"الكل كان في صفه، وقد لمس الحضور بأنفسهم ذلك الأمر. لكن الأهم من هذا هو كيف كان جالسا، ذلك الرجل الطويل ذو الشعر الأسود المجعد والعينان السوداوان، وإلى جانبه تلك المرأة الجميلة!"

"هل سيبقيان في تارا؟"

"سيغادران مايد كلها".

"ولِمَ لا؟ لقد أصبح كل شيء على ما يرام".

"على ما يرام؟! من يستطيع أن ينسى عشر سنوات في مساء واحد؟"

كم كثرت القصص التي نسجها المغنون عن السنوات العشر تلك.. في الأمسيات! لا بد وأن ديرميد وجرينه قد عايشا أحداثا فظيعة. عن خوفهما من لحاق فين بهما، قام الموسيقيون بتأليف قصة القبيح ذي المعطف الأخضر، الذي طاردهما بكلاب الصيد الثلاثة التي تتنافس في وحشيتها. أما الجوع الذي عانياه، فقد تناولته قصة العملاق الذي جلس فوق شجـرة فاكهـة، وهددهما بالضـرب عندما أرادا أن يأكـلا منها. كذلك حكى الموسيقيون قصـة ساحرة الجبل الأسود التي تـدور حـول خوف ديرميد وجرينه من أن يشي الناس بهما. وفيهـا اتخذت الساحرة هيئة غـراب يطيـر عبر البلاد، ويحط حيث يبيتان.

من مزرعة لأخرى كانت تكثر القصص، التي تحبس عند سماعها الأنفاس. كان الناس حينئذ يفكرون فيما مروا به هم أنفسهم طوال تلك السنوات العشر. فقد كانوا في كل أنحاء البلاد يقعون في الحب، ويتزوجون، وينجبون الأطفال. كذلك كان كبار السن يذهبون، وكان الناس يتنازعون على الماشية. كما نمت الأشجار، ونبتت

البذور، وصارت الحقول خضراء، ثم أصبحت خاوية مرة أخرى. إنها نفس المدة، عشر سنوات كاملة.

بالرغم من أن العشر سنوات تلك كانت هي نفس المدة التي مرت على ديرميد وجرينه، إلا أنها اختلفت بالنسبة لهما بشكل لا يمكن تصوره. وقد كانت بداية ذلك كله في قاعة الاحتفالات الخاصة بالملك. هكذا تفهم الناس، لماذا لم تكن جرينه تريد البقاء في تارا بشكل دائم. –

ومع ذلك، بقيت مع ديرميد لفترة بعد ذلك المساء. كانت فنجوالا هي التي جعلتها تفعل ذلك. فبعد مأدبة الحفل في القاعة، جلست الاثنتان معا في بيت جرينه، وتركهما ديرميد وحدهما.

"لن أجد بداية جديدة إذا بقيت في تارا يا آلا. لن أستطيع ذلك. قد يعتبر والدي أنه فعل الكثير عندما تغلب على نفسه ومد لي يده، لكن ذلك قليل جدا بالنسبة لي".

"نعم يا جرينه، ستحتاجين وقتا طويلا حتى تستطيعي مسامحته على كل ما فعل. لكن عليك ألا تجازي والدتك على ذلك. كنت بجانبها وحولها، وهي لم تدعني أبعد عنها. حكت لي كيف ألحت على والدك في تلك الليلة التي كان من المفترض أن تتخذي فيها قرارك. ومع ذلك كتب عليها أن تعاني كل تلك السنوات الكثيرة. في الفترة

الأولى لم يمض يوم إلا وكانت تتوسل فيه إلى والدك أن يساعدك. أنا أعرف كيف نهرها مرة وهو في شدة ضيقه: 'أنا لست مزارعا مأجورا! أنا لست خادما في البلاط! كما أني لست مجرد سيد حر، ولا نبيلا من النبلاء! لو كنت أيا من ذلك، لكنت أعدتها بنفسي إلى المنزل. لكننى الملك المعظم. الملك المعظم، فلتفهمي ذلك! أي عهد سيتم الالتزام به في ارين، إنْ أعطى الملك المعظم عهدا ثم خرقه كما يحلو له؟ إنهم لم ينادوا بي ملكا عليهم؛ لأننى انتصرت في بعض المعارك، بل فعلوا ذلك لأنني كنت أخوض حروبا عندما كان أحد ينقض عهده. العهد هو القانون في إرين، نحن لا نملك قانونا آخر'. هكذا قال آنذاك. لكن الملكة لم تفهم ما قال، أو أنها لم ترد أن تفهم. كانت الليالي هي الأسوأ بالنسبة لها. ما أكثر ما تجولنا معها، أنا وماتشا! وقد حاولت الهرب مرتين. أمرت بتجهيز عربة، وبوضع فراء، ولحم، وخبز فيها، ثم انطلقنا بها. في المرة الأولى لحق بنا الملك. لا بد أنه أصدر بعدها تعليمات سرية للسائقين، لأنهم في المرة الثانية داروا بنا فقط في دائرة. وفى الشتاء الذي مرضت فيه بشدة، أرادت أن تنهى حياتها. علم الملك بذلك، وأرسل أربع خادمات جديدات إلى المنزل الخاص السيدات"

"هل كنت تعلمين ما كان يحيط بى وقتها يا آلا؟"

أومأت فنجوالا. "تاذيت آنجوس، وكذلك جاءكما موادهان لتقديم المساعدة" توقفت فنجوالا برهة عن الكلام، ثم استطردت قائلة: "مع الأيام استسلمت الملكة. مكثت في البرج وبدأت تدريجيا تتأقلم مع العيش على أمل جديد: وهو أنك ستعودين في يوم من الأيام. ما أكثر الأشياء التي نسجناها، وغزلناها، ولوناها، وخطناها. منذ فترة طويلة والمنزل معد من أجلك. عليك أن تعلمى ذلك أيضا يا جرينه، فربما يصالحك هذا قليلا على تارا: بحث عنكما كثيرون ممن أرادوا مساعدتكما ومشاركتكما حياتكما. كان أولهم رئيس الإصطبل. وبعده اختفى اثنان من عمال الإصطبل. وتصورى من أيضا، السائق العجوز الذي تعلمت على يديه قيادة العربة"

"هل عادوا ثانية؟"

"نعم."

"وماذا عن الملك؟"

"لم يعرف بالأمر. فقد أخفى عنه آتان كل شيء. حتى آتان نفسه غاب عن القلعة عدة مرات. لكن بالنسبة له لا يعرف أحد أبدا بالتحديد، أين كان"

ضحكت الاثنتان، وشعرت جرينه لأول مرة بأنها تمسك بيدها طرف الحياة الجميلة التي عاشتها في السابق. كان ما يدور ببالها هو أنه لابد من الحديث مع آلا، فدائما ما كان الأمر معها هكذا.

"آلا، هل لازالت الملكة مستيقظة؟"

"اليوم؟ هذه الليلة لن تستطيع النوم من السعادة. لم تسألين؟"

"أود الذهاب إليها لأقول لها أنني سأبقى في تارا لبعض الوقت"

في مملكة كوناخت كانت عائلة دوبنه التي ينتمي إليها ديرميد تمتلك قطعة أرض كبيرة: عبارة عن مروج واسعة يانعة تمتد غربا حتى البحر، وتمر شرقا عبر أرض تنتشر بها التلال، لتنتهي عند منحدرات الجبال. كانت قطعة الأرض تلك تحتوى على غابة، وبحيرات، وأنهار ومنطقة صيد فسيحة. كما كانت تتبعها مزرعة قديمة، خاوية من السكان، يعيش في محيطها بعض الفلاحين الذين لم يحصلوا على أجورهم منذ وفاة آخر ساكن فيها. كان هذا هو المكان الذي توجه إليه آنجوس من 'بروف نا بوينه' مع ديرميد وجرينه بعد معركتهما مع فين، وإلى هناك عاد الاثنان الآن.

كم كان عدد العربات التي توجهت إلى المزرعة القديمة؟ كانت عربتان محملتين فقط بأدوات منزلية: أكواب، كؤوس، أطباق، قدور،

أحواض، براميل زبد، وسلات، وعربتان بملابس، وأقمشة، وفراء، وعربتان بكسوات للأحصنة، وآلات يدوية: سكاكين، وفؤوس، ومطارق، وعربة برماح، وسيوف، ودروع. صاحب ديرميد وجرينه خادمات، ومحاربون، وأصحاب حرف يدوية، كذلك أبقار وخراف، وخنازير بالإضافة إلى العربات، والأحصنة التي ألحقت بهذا الركب. كانت الملكة قد فكرت في كل شيء. تقدم الركب ديرميد، الذي كان 'جمال البجع' طيعا بين يديه، وخلفه جلست جرينه وفنجوالا.

من بعيد رأوا المزرعة القديمة الكبيرة، وقد بدت عليها الفخامة. فجأة لم يستطيعوا تحمل الانتظار حتى يصلوا إلى هناك. كان ديرميد هو أول من عبر السد المتهدم، ثم الساحة، حتى وصل أمام المنزل. وتبعته عربة تلو الأخرى، حتى إذا توقفت جميعها، صاح:

"مرحبا بكم في قصر جرينه!"

تفاجأت جرينه، لا لأن ديرميد قد أطلق اسمها على المزرعة، ولكن لأنه سمى المبنى القديم قصرا. لقد أدهشها ذلك حقا.

قالت بحماس شديد: "سوف نجعل منه قصرا! أمامنا حياة بأكملها لتحقيق ذلك" قفزت من العربة وهى تضحك. وبعد هنيهة كان الجميع يقفون خارج العربات.

بعد مضى عام كان المشهد مختلفا تماما. أصبح السد الحجرى جديدا، كما امتد أيضا أمامه حول قصر جرينه سياج قوى من جذوع الأشجار السميكة. وأضيف إلى البيت الحجرى ملحق تم بناؤه بشكل مستدير، وارتفع عن السطح القديم: كان برج السيدات.

فى أحد الأيام، عندما بلغ ارتفاع الملحق نفس ارتفاع السطح قالت جرينه: "بالتأكيد سيكون من الصعب بناء شرفة."

تنهد ديرميد وهو يجيبها: "إنه أمر صعب جدا"، لكنه أمر بإضافة شرفة إلى البرج من أجل جرينه.

تم تجديد غرفة التدخين، وتوسيع المطبخ، وأضيفت ثلاثة بيوت حجرية صغيرة من أجل الخدم إلى الثلاثة الأخرى القديمة. تم أيضا تغطية جميع الأسطح المنتشرة بالمزرعة بألواح خشبية صغيرة، وزودت بإضاءة خافتة تحت هامات الأشجار التي أحاطت بالساحة. كذلك قامت فنجوالا بزرع أشجار القندول حول البيت. كانت قد أحضرته مع جرينه من أطراف الغابة. وحاولت الاثنتان أيضا زراعة بعض أشجار الريددندرين المنخفضة.

كثيرا ما كانت جرينه تتنزه خارج المنزل حتى تألف الأرض، "أرضنا يا ديرميد"، هكذا كان قولها وهى تقود ‘جمال البجع’ بنفسها ثانية. "لقد أخذت آتان أيضا من قبل في نزهة بالعربة، فلم لا أفعل ذلك معك يا ديرميد؟"

وعندما كان ديرميد لا يملك الوقت لذلك، كانت جرينه تضع السرج على ‘جمال البجع’ وتمتطيه.

قالت لفنجوالا في إحدى المرات: "أقوم بذلك فقط كي أستطيع العودة إلى المنزل. فأنت لا تعلمين كم يسعدنى أن أرى المزرعة من بعيد وأنا على ظهر الحصان، ثم أقترب منها شيئا فشيئا. أستطيع أن أسمع أصواتكم وأنا أمام السياج، وأكثر ما أود وأنا أعبر السد هو أن أوقف ‘جمال البجع’، ثم أتمنى لنفسى أربع أعين، لأن عينى الاثنتين لا تمكنانى بشكل كاف من رؤية كل الأشياء التي تجعلنى أشعر بكل تلك السعادة"

فى الشتاء الأول، وبعد فترة وجيزة من عيد الساموين، تجمد النهر. حينئذ أمر ديرميد صانع العربات الخشبية بصنع عيدان من الخشب، ثم أخذها جميعا إلى مياه النهر المتجمدة، حيث قام ديرميد وجرينه بالتزلج على الجليد الأملس اللامع. في المرة الأولى كانا وحدهما، لكنهما عندما ذهبا للمرة الثانية، كان الفلاحون هناك. وطالما

بقى الجليد ظلوا يتقابلون بشكل دورى ليتنافسوا مع بعضهم البعض في التزلج.

فى هذا الشتاء الأول بقصر جرينه قام ديرميد وجرينه برحلة وصلا فيها حتـــى مشـــارف البحـــر. استطـــاعا أن يرياه عدة مرات من بعيد أثناء الرحلة، لكنه كان يختفى في كل مرة يهبط فيها الطريق بهما إلى الوادى. فقـــط الريـــح هـــى التي ظلت تحمل إليهما رائحة مياه البحر.

فى النهاية وصلا إلى خليج ضيق رأياه تحتهما مثل عين براقة، جذابة. لم يكن هناك طريق مؤد إليه. لذا أخذ ديرميد الزمام من يد جرينه وانحدر بالعربة إلى أسفل بحذر. توقفا عند البحر وأخذا يشاهدان أنفاس الأمواج. كانت الريح باردة كالثلج وهى تصطدم بهما، فالتصقا ببعضهما البعض، وأخذا يفكران بنفس الشيء دون أن يفصحا عنه: فكرا بالشتاء وبالكوخ الذي أقاما به في خليج كاسلمين.

همس ديرميد في أذنها قائلا: "سيصبح الأمر هكذا مرة أخرى" كانت أنفاسه ساخنة لدرجة جعلت جرينه فجأة لا تشعر بالريح.

"لكن لا يوجد هنا كوخ يا ديرميد" ردت جرينه بتلك الكلمات، وهى تعلم مسبقا أنه لن يستمع لما تقول.

في ظهر أحد الأيام في بداية الربيع، عادت جرينه بحصانها إلى البيت وهى متوترة.

نادت من على الباب: "آلا! آلا، أين أنت؟ آلا، تخيلى، هناك بجعات في النهر. رأيتها وهى تطير. أظن أنها تبحث عن مكان تعشش فيه، على الضفة الأخرى، وسط الغاب. هما زوجان من البجع. ترى هل سيرقد على بيضه عندنا؟" في نفس ذلك اليوم ذهبت مرة ثانية مع ديرميد بالعربة إلى النهر.

مكثت البجعات، عششت وأسست مكانا لاحتضان البيض. وفى كل يوم كانت جرينه تذهب للاطمئنان عليها وهى تحمل معها دائما في حقيبتها قطعة من الخبز. وحين بدأ صغار البجع يحبون لم تعد جرينه تذهب إليهم ممتطية حصانها، بل كانت تأخذ العربة. حتى جرينه بدا شكلها مختلفا بعد انقضاء العام الأول. –

كانت الأسابيع الأخيرة سيئة للغاية. كانت تجول في قصرها وهى مضطربة. في إحدى المرات ظلت ملتصقة بديرميد ورافضة الابتعاد عنه، وفى مرة أخرى رفضت أن يقترب منها. لقد صارت قليلة الحركة، تعانى من ضيق في التنفس. كانت تشعر بالخوف ولا تفصح لأحد عن ذلك.

كانت تفكر: تلك كانت أمنيتى. لقد كنت أحسد إمير على طفلها. أما الآن؟ إمير أيضا اضطرت إلى ولادة الطفل. ترى هل كانت خائفة كل هذا الخوف مثلى؟ ترى هل تخاف كل النساء؟ بالتأكيد في المرة الأولى فقط، بعدها يعرفن كيف يكون الأمر. عادت جرينه تنتظر الطفل في سعادة. لو كانت فقط تستطيع التحدث إلى فنجوالا في هذا الأمر، لكن آلا لم تلد من قبل.

بعد ظهر أحد الأيام جذبها الشوق إلى البجعات مرة أخرى، فأمرت بتعليق 'جمال البجع' بالعربة. لم يرد ديرميد أن يتركها تذهب وحدها، لكنها أصرت على ذلك.

"ما الذي يمكن أن يحدث لى إذا ذهبت مع 'جمال البجع' بالعربة؟ سأبقى في العربة، أعدك بذلك."

لكن عند النهر لم تسنح لها الفرصة بالبحث عن البجع. فقد رأت صبيا يشق الطريق حاملا شيئا تحت ذراعه. عندما لمح العربة، توجه سريعا صوب المراعي واختفى بينها.

"اسرع يا 'جمال البجع!" وصلت جرينه إليه أسرع مما تصور. كان الشيء الذي يحمله تحت ذراعه ملفوفا في قطعة بالية من القماش. تركها تسقط، ثم جلس ووضع ساقيه فوقها.

"ماذا تفعل هنا؟"

"أنا؟ – أردت أن أجلس لبرهة."

"هل تبحث عن البجع؟ هل أحضرت لهم قطعة من الخبز؟"

كان شيء يتحرك تحت ركبتيه، فأمسك به.

"بم تمسك؟"

خفض الصبي رأسه. "لا أحب فعل ذلك، لكن ماذا سيكون مصيره؟ الكلبة الكبيرة لا تسمح له بالرضاعة منها. سوف يموت جوعا. لذا فإن هذا أفضل له" أخرج جروا صغيرا.

"أنت لا تريد إغراقه؟"

"نعم، لأنه سيموت جوعا إن لم أفعل ذلك."

كانت جرينه ترى فقط الجرو الصغير الذي يمنعه ضعفه من الوقوف على أرجله. في تلك اللحظة اتخذت قرارها. "أعطني إياه، فأنا سأربيه. نحن حتى الآن لا نمتلك كلبا. سيقوم بحراسة المزرعة التي نملكها."

قفز الصبي، ثم ضحك بشكل يدل على ارتياحه لما سمع. "سيحتاج ذلك إلى وقت. لكنه إذا أصبح شرسا مثل كلبتنا 'بندق'!"

هنا سألته جرينه: "هل قمتم بتسمية أمه باسم خشب شجر البندق السحرى؟"

أومأ الصبى. "لأن هناك شيئا ما مميزا في قدرتها على تصنيف الغرباء إلى أخيار وأشرار، ولأنها يقظة جدا، ولأنها تشعر بكل تقلب في الطقس، ولأنها-"

"وأردت أن تغرق صغيرها؟"

"سبق وأن ذكرت لك السبب."

حملت جرينه الجرو على ذراعها، ثم قالت: "تستطيع أن تأتى مرة، بعد شهر أو شهرين، للاطمئنان عليه" وضعت زمام الخيل في يدها الأخرى، وحولت اتجاه العربة.

نادى الصبى من خلفها: "أردت أن أسأل عن شئ!"

"هل يمكن أن تحتاجى إلى بعض القطط الصغيرة؟ أستطيع أن أحضرها معى، عندما آتى للاطمئنان على الكلب."

"لم لا؟ فهناك كثير من الفئران في قصر جرينه."

وقف ديرميد فوق السد يترقب وصول جرينه في قلق، وعندما رآها آتية جرى نحوها.

صاحت: "وصلت! وصلت، وأحضرت لك هدية يا ديرميد. خمن ماذا!"

"لن أخمن. فلتريني إياها!"

"أحضرت لك معي ابن 'البندق'."

"ماك آن تشيل؟ من يكون ذلك؟"

"هذا هو!"

مسح ديرميد بيده الرأس السميك، غير المتناسق للجرو، فأخذ الجرو الصغير يمص أصابعه. وجه ديرميد له الحديث قائلا: "إنك جائع. سأجلب لك حالا خادمة" ثم دخل به إلى المنزل.

هكذا نشأت صداقتهما. وقد شارك ماك آن تشيل ديرميد فيما بعد أصعب ساعة بحياته.

اعتنت جرينه بنفسها أيضا بالكلب الصغير، حتى أنها صارت تفكر في نفسها بصورة أقل بكثير عما قبل. في وقت حصاد الحقول جاءت الملكة، وحتى مانشا العجوز الضعيفة لم يستطع أحد أن يثنيها عن الرحلة الشاقة بالعربة. مع دخول الفلاحين بالعربات الأولى التي تحمل الحبوب، كان الأوان قد حان. جلست ثلاث سيدات عند فراش جرينه: الملكة، وفنجوالا، ومانشا. كلهن شاركنها الشعور بالألم. بعد

منتصف الليل بقليل تمت ولادة ابنة ديرميد وجرينه، وبعدها بقليل جاء ابنهما إلى العالم.

عندما جاء ديرميد إلى فراش جرينه قالت له: "إنهما اثنان يا ديرميد، اثنان مرة واحدة – ذلك لأننا انتظرنا طويلا" كانت مستلقية، وهى مغمضة العينين، وكانت تضحك.

"التوائم أطفال محظوظون"، هكذا كان يقول الناس في ارين، ولازالت تلك المقولة سارية حتى يومنا هذا.

فى هذا الشتاء أصبح كل شيء يدور حول السلتين اللتين ينام فيهما دروم الصغيرة، وكون الصغير.

فى مساء أحد الأيام، وجرينه لا تتوقف عن تفقد الصغيرين وترتيب الوسائد لهما، غمغم ديرميد قائلا: "أصبح لهما بلاط كأبناء ملك. أنا أيضا لازلت موجودا. بالنهار أذهب وحدى للصيد، وأذهب وحدى للتزلج، ثم أبقى في انتظار المساء. لكنه حين يأتى فأود أن أحكى كل شيء وأتمنى لعب الشطرنج، أجد نفسى جالسا وحدى ثانية."

قالت جرينه: "نعم، نعم، الرجال هم أكثر من يعانون" ثم مدت ذراعيها عبر مسند المقعد ووضعتها حول عنقه، وتحسست شعره

بفمها. "ما ذنبى أن هناك طفلين ينامان في هاتين السلتين. لم يرثا من أبيهما فقط شعره الأسود، لكنهما أيضا يشبهانه تماما في قلة صبره. لن نذهب مرة أخرى إلى الخليج، أليس كذلك يا ديرميد؟"

"إنك لساحرة شريرة" مال ديرميد إلى الخلف وأخذ يلمس جرينه بيديه عبر المقعد. أرادت أن تفلت منه. "ولكن يا ديرميد، هل سمعت من قبل بساحرة شريرة شقراء؟ أنا لم أسمع."

لم يتركها.

قالت: "سأحضر الشطرنج الآن. فأولاد الملك قد ناموا."

عندما جاءت جرينه باللعبة إلى الطاولة، جذبها ديرميد إلى جانبه، وقال: "جرينه، هل كان يمكن أن تفكرى بأنه سيصبح لنا في يوم من الأيام كل ذلك؟"

أخذت تقبل عينيه، وأنفه، وفمه، ثم همست: "لا، لا، لا. قالت لى آلا في إحدى المرات أنه لابد أن يسعد الإنسان في الأيام الجيدة ضعف سعادته العادية. لكنى سعيدة بمقدار عشرة أضعاف. وأنت يا ديرميد؟"

"أنا لا أستطيع العد يا جرينه."

وفي أثناء الليل، عندما كان ديرميد يغط في نوم عميق، تسللت جرينه بحرص من بين ذراعيه لتجلس وتنصت إلى السلتين. ما قاله ديرميد لم يفارق خاطرها: 'أصبح لهما بلاط كأبناء ملك!' – أبناء ملك؟ إنهما ليسا أبناء ملك. – أليس كذلك؟

تسللت جرينه من تحت الغطاء ولفته جيدا حول ديرميد حتى لا يستيقظ. تحسست طريقها إلى خارج حجرة النوم. لابد دائما أن يحدث الباب صوتا!

تسللت إلى غرفة آلا.

"آلا؟" رأت جرينه عينيها العسليتين. "آلا، لابد أن أسألك عن شيء. أبناء الملك لير، ألم يكونوا توأما، أعني أول طفلين؟"

"نعم، كانا فتاة وصبيا."

"وماذا عن الاثنين الآخرين؟"

"كانا أيضا توأما، صبيين."

بقيت جرينه واقفة في الظلام. "لم يكن سؤالي بسبب الأطفال يا آلا، ولم يكن لأنني ربما أرزق في يوم من الأيام بتوأم آخر. كنت أسأل فقط – كان مجرد خاطر مر بفكري في هذه الليلة. بالتأكيد بسبب السعادة التي نعيشها أنا وديرميد، ولأننا بقينا سويا من قبل

عشر سنوات صعبة، ولأننا سنكون دائما، أنا وديرميد، مستعدين لخوض ذلك من جديد. هل من الممكن يا آلا أن يصبح أولاد الملك لير المسحورون إلى بجع، بشرا من جديد؟ أعنى أول طفلين له؟" في نفس اللحظة التي نطقت فيها بتلك الكلمات بدا لها أن ما قالته يوحى بالغرور الشديد، لهذا لم تود البقاء أطول من ذلك.

"لقد وضعتك أفكارك تلك على الطريق الصحيح يا جرينه. فالحب بين رجل وامرأة، الذي يتعدى علاقتهما في الفراش، الحب، كما تشعران أنتما به، هو الذي سيخلص أبناء الملك لير. لقد خلصتما أول طفلين يا جرينه."

خرجت جرينه من الباب. وفى الخارج اتكأت على الحائط البارد.

كانت تفكر: ذلك إذن هو قدرنا.

الوقوع تحت سحر الخنزير البرى

فى نهاية الصيف جاء ملك كوناخت مع حاشيته إلى قصر جرينه للصيد. عند إعلانه عن زيارته، تم بسرعة شديدة بناء وتجهيز مضيفة جديدة. مكث الملك شهرا كاملا، أقيم في كل يوم فيه حفل كبير. وكانت جرينه تقل الملك وديرميد بالعربة إلى منطقة الصيد كل يوم، حتى وإن كانت لن تشارك بنفسها معهما في الصيد. كان الكلب ماك آن تشيل قد صار حيوانا ضخما، وأثبت بالفعل في هذا الصيف الأول مدى أهميته بالنسبة للصيد. لذا كان فخر ديرميد به يزداد يوما بعد يوم.

كانت أفضل وأفخم أنواع الغزلان تعيش في الجبال، وخاصة في منطقة جبل بنبولبن التي اجتذبت الملك وديرميد مرة تلو الأخرى. وفى المساء كانا يحتفلان بحظهما في الصيد في صالة المعيشة، حيث لم يتوقفوا جميعا عن سرد الحكايات، وعن الأكل والشرب. كم من مرة خيم عليهم جو من المرح والبهجة، بعدها كانوا يرقصون حتى مطلع النهار. توجب على كل الخادمات أن يتواجدن، وبالرغم من

ذلك كان عددهن قليل جدا بالنسبة إلى العدد الكبير للضيوف، مما لم يسمح لهن بأية فرصة للراحة، حتى أثناء الرقصات.

لم تشعر جرينه بالتعب أبدا. وفي إحدى المرات، عندما كانت تراقص الابن الأصغر للملك، اقترب ديرميد من الملك وسأله: "هل سمعت شيئا عن فين؟"

أجاب الملك: "لقد احتفل معنا بعيد البيالتين."

قال ديرميد وهو مستغرق في التفكير: "في كوناخت بالذات؟"

أومأ الملك. "لن يجرؤ أبدا على خرق اتفاق السلام، فهناك كثيرون يقفون في صفكم. ولكن لا تثق به!"

نظر ديرميد أمامه، ثم قال: "حينما كنت قائده الأول، أنقذت حياته مرتين"

قاطعه الملك قائلا: "الجميع يعرفون ذلك."

لكن ديرميد استطرد: "كنت أظن دائما، أنه الآن، وبعد المصالحة التي عقدناها في تارا، سوف يتذكر ذلك في وقت ما" رفع ديرميد كتفيه.

انتهت الرقصة أثناء حديثهما. "لا تنبس بكلمة عن ذلك لجرينه!" أسرع ديرميد بقول تلك الكلمات للملك قبل أن تعود جرينه للجلوس إلى جانبه.

في الشتاء جاء ملك مونستر إلى قصر جرينه للصيد. وقد مكث مدة أطول من المتوقع، لأن وقت التزلج في كوناخت كان قد حان، وكان التزلج هو أكثر ما يجد فيه الملك متعته. لكنه لم يكن يجد الفرصة لذلك في جنوب مملكته، مونستر، حيث تغطى البرك مجرد طبقات رقيقة من الثلج. وعندما كانوا يعودون للمنزل، تعلو وجوههم الحمرة من أثر برودة الثلج، كانوا يحتفلون أيضا طوال الليل.

تناقلت الألسنة سريعا كرم الضيافة الذي اتسم به ديرميد وجرينه، وكذلك الاحتفالات البهيجة التي كانا يقيمانها بقصر جرينه. ولم يكن يمضى فصل من فصول السنة دون الإعلان فيه عن زيارة ما. هما أيضا كانا يقومان برحلات. وبقدر ما كانا ينتظران كل رحلة بسعادة بالغة، وبقدر ما كانا يستمتعان بضيافة الآخرين لهما، بقدر ما كانا يشعران بالسعادة عند عودتهما ثانية إلى بيتهما.

"أمضينا في السابق وقتا طويلا جدا في الترحال"، كان هذا ما يقوله ديرميد دائما، بينما تشرئب جرينه بعنقها، حتى قبل أن يستطيعا رؤية المزرعة بشكل حقيقى. ولكن أول ما كانت تظهر للعين، كان

الاثنان لا يستطيعان انتظار اللحظة التي يريان فيها فنجوالا تخرج من الباب حاملة الطفلين. عندها كان ديرميد ينطلق وكأنه في سباق عربات، ولم يكونا يشعران بالسعادة والرضا قبل أن يحمل كل منهما طفلا على ذراعيه، ويشعر بشفاه الدافئة الرطبة على وجهه.

كان ديرميد يضحك وهو يقول: "من حظنا أن لنا طفلين! وإلا كنا تشاجرنا حول من يحمل الطفل أولا" بعد ذلك كان يترك الأحصنة تهرول حول الساحة إلى أن يهلل الطفلان من الفرح ويعلو نباح ماك آن تشيل حتى يصير غير محتمل.

قضى ديرميد وجرينه خمس سنوات في كوناخت، حوالى خمس. في الأسابيع القليلة الباقية كانا مشغولين بشكل كبير. فقد أرادا إقامة حفل كبير عند اكتمال العام.

قاما بدعوة كل أبناء وبنات الملوك. وحين حان الوقت أخيرا، احتفلا معهم على مدار سبعة أيام وسبع ليال. من مملكة مايد حضر آتان الذي مكث لمدة أطول بقليل من المدعوين الآخرين.

تجولت معه جرينه كثيرا في أرضها بالعربة. وفى مرة سألته: "ألم تجد الزوجة التي تأملها حتى الآن؟"

"بلى، قريبا."

"هذا جيد، فأنت لم تعد صغيرا يا آتان."

ضحك في تحد كعادته، ثم قال: "ربما يظهر هذا على ملامح وجهى. لكنه لم يعتبر قط عيبا بالنسبة لأى رجل."

"أتظن ذلك؟" نطقت جرينه بسؤالها، وبعدها بدأت تضحك بصوت عال.

لكن آتان عاد وصحح معنى كلامه: "عندما أصبح عجوزا مثل فين، حينها لن أنتظر."

"وأنا لن أنصحك بذلك أيضا يا آتان."

فى الاحتفال بمضى خمس سنوات قدم ابن ملك كوناخت لديرميد وجرينه دعوته لهما بمناسبة الساموين، وقد وعداه بالمجئ. ولكن مع اقتراب تحول شمس الشتاء وقصر النهار يوما بعد يوم، حملت جرينه مجددا. وقد كانت معاناتها في هذه المرة أكبر بكثير من المرة الأولى، مما جعلها تتجنب ركوب العربة في طرق وعرة، فاضطر ديرميد إلى القيام بالرحلة إلى قلعة الملك وحده. في البداية لم يكن يريد الذهاب واعترض قائلا: "سأكون بعيدا جدا ولا أعلم كيف تسير معك الأمور"

"لكن يا ديرميد، ستتجاوز الرحلة فترة عيد الساموين."

"هذا صحيح، لكننا لم نفترق من قبل أبدا."

"منذ خمسة عشر عاما! ألم يحن الوقت لذلك؟"

"تريدين التخلص منى يا جرينه؟"

"كيف هذا يا ديرميد! التصقت به وقالت: "كيف هذا! هل ستفكر بى عندما تذهب؟"

"كثيرا جدا يا جرينه."

"كثيرا جدا؟ هذا قليل جدا بالنسبة لى."

"دائما."

"عدنى بذلك، وإلا لن أتركك تذهب."

"دائما!" قال ذلك ثم قبلها.

"وأنا أيضا يا ديرميد، دائما!"

فى هذا الشتاء كان الضباب كثيفــا، والصقيــع قليـــلا، وقلما نــزل ثلج. حتى ندائــف الثلج كانت تــذوب على الفور في المطر الذي يعقب نزولها.

كان فين أيضا في كوناّخت بمناسبة الساموين، دون دعوة من أحد. لكنه فين ماك كومهال الذي يستطيع الذهاب أينما يريد. وقد حكى ديرميد أنهما تحدثا مع بعضهما البعض كعهدهما في السابق تقريبا.

قالت جرينه: "عندما يولد الطفل، وأستعيد جمالى ثانية، سندعو الملك المعظم وفين أيضا. لابد أن يصبح كل شيء منسيا في يوم من الأيام. ألن يساعدنا الأطفال على ذلك يا ديرميد؟"

"لم يعد ذلك ضروريا بالنسبة لوالدك منذ وقت طويل يا جرينه، لكن بالتأكيد بالنسبة لفين."

بعد ثلاثة أشهر من عيد الساموين استقبلت جرينه من جديد توأما. وبقدر صعوبة الفترة التي سبقت ذلك، بقدر ما كانت الولادة سهلة عليها في هذه المرة. لم يدهشها كثيرا أن تنجب توأما مرة أخرى، كما لم تندهش لكونهما صبيين. كانا أشقرين مثل جرينه نفسها، وقد بدا ذلك في اللحظة الأولى من ولادتهما. ولكي توفر جرينه على الملكة الرحلة من تارا في الشتاء، أرسلت إليها نبأ ولادة الطفلين بعد أن انتهت الولادة. وقد كان على الرسول الذي حمل النبأ أن يوصل في نفس الوقت الدعوة إلى الملك المعظم، ثم يسافر بعدها إلى قلعة ألموين. كانت جرينه في تلك الأسابيع تنام نوما خفيفا. فكلما

تحرك الطفلان في سلتيهما، كانت تستيقظ وتنصت إليهما. أحيانا كانت تفكر بأنه ربما كان عليها في هذه المرة أن تستعين بمرضعة.

في تلك الليلة، لم تستطع النوم مطلقا، مثلما كان الحال في العشر سنوات السابقة، ساورها نفس القلق، وقامت بالتنصت بشكل مستمر! إننـــا بالمنزل، لم نعد نهرب. أخيرا نامت، ولكن بعد منتصف الليل بكثير.

أفزعها صوت ديرميد بجانبها وهو يسأل: "ألا تسمعين شيئا؟"

"لا. ماذا عليّ أن أسمــــع؟" رفعت رأسهـــا وهـــو مثقل بالنعاس. "الأطفال؟"

"ليس الأطفـــال، إنها كـــلاب! يبـــدو لي الصوت وكأنه صوت صيد بالكلاب."

"لكــــن يا ديرميد!" وضعت ذراعها حولـــه. "مـــن الـــذي سيصطاد فـــي منطقتنـــا، فـــي منتصف الليل؟ كنت تحلم يا ديرميد". أخذ الاثنان ينصتان.

"ها هو! هل تسمعينه الآن؟"

"لكن يا ديرميد! إن كان غريبا عن المنطقة لم يحترم قانون الصيد، فبالتأكيد لن يصطحب معه أيضا مجموعة من كلاب الصيد!"

وقف ديرميد. "أريد أن أرى ذلك".

في اللحظة التالية كانت جرينه تقف بجانبه. "ديرميد، إننا في منتصف الليل".

"لا يا جرينه، لقد أصبح النهار وشيكا. أريد أن أعرف من الذي يملك الجرأة على القيام بالصيد في أرضي دون أن يسألني!"

"لكن يا ديرميد، لا بد أنهم أصدقاء سبق وأن قاموا بالصيد في أرضك".

"ليسوا أصدقاء يا جرينه".

سمعا الآن وللمرة الثالثة صوت الكلاب.

صاح ديرميد: "الصوت يأتي من ناحية جبل بنبولبن!"

"انتظر حتى يطلع النهار يا ديرميد. انتظر، فأنت الآن لا تستطيع أن تمنع شيئا".

لكن ديرميد كان قد هم بوضع المعطف على كتفه والخروج من الغرفة.

"انتظر يا ديرميد، أنا ذاهبة معك!"

"لكن يا جرينه، بعد قليل سيصرخ الأطفال طلبا لك – جرينه، لماذا تبكين؟"

"ابق هنا يا ديرميد! لا تذهب إلى هناك يا ديرميد!"

"لكن يا جرينه، أنا لست ذاهبا وحدي، سآخذ معي العمال وماك آن تشيل. من أكون إذن إن أكملت نومي! إن قبلت بأن يقوم بالصيد في أرضي كل من شاء!"

"ستبقى دائما في نظري ديرميد!"

بدا عليه وكأنه متردد. أخذها بين ذراعيه، وقال: "اذهبي إلى أطفالنا، سأعود سريعا"، ثم خرج من الصالة.

لا بد أن أتبعه! لا بد أن أمنعه! لماذا لا أستطيع الحركة؟ لماذا صرت كالحجر؟ ديرميد لا يجب أن يذهب! تحاملت على نفسها لتمشي. وعندما فتحت الباب، كانت العربة تخرج من المزرعة. سمعت جرينه صوت العجلات تصلصل وهي تبتعد شيئا فشيئا، ثم خفت صوتها شيئا فشيئا، حتى لم تعد تسمعها على الإطلاق.

عندما لم يرد التوأم الصغير التوقف عن الصراخ، طرقت فنجوالا باب غرفة النوم وأخذت تبحث عن جرينه لتجدها قابعة بجانب الموقد، تحملق وترتعش. رفعتها فنجوالا من على الأرض، ثم أدخلتها إلى الغرفة، ووضعت الأطفال بين ذراعيها، واحدا تلو الآخر.

بعدها استلقت جرينه على الفراش وأخذت تنظر بعينين مفتوحتين إلى حيث يقع بصرها.

أثناء ذلك كان ديرميد يتجه بأسرع حصانين عنده إلى جبل بنبولبن. كان يقود بنفسه، فلم تكن لترضيه قيادة أي سائق في تلك الساعة. وكان أحد العمال يمسك برمح ديرميد، بينما كان الآخر يمسك بالكلب الكبير. شعر ماك آن تشيل بقلق ديرميد، لذا وضع قدميه الأماميتين على حافة العربة وأراد أن يقفز ويتقدم الأحصنة. وقد بذل العامل جهدا كبيرا في جذبه من الطوق الموضوع حول رقبته ليمنعه من ذلك.

مع دخول النهار وصلوا إلى الغابة الواقعة عند سفح جبل بنبولبن. كان الضباب قد سمح لصخور الجبل الرمادية، الممتدة لمسافات بعيدة بالظهور. توقف ديرميد وأصدر أوامره إلى العمال: "اربطوا الأحصنة واتبعوني بحذر! يجب ألا يكسر فرع شجرة!" بعد ذلك حل الطوق من حول رقبة الكلب، ثم أخذ الرمح في يده، وأغمد سكين الصيد في حزامه دون أن يحرص على تثبيته.

"ابحث يا ماك آن تشيل!" حفز الكلب بتلك الكلمات، ثم صعد إلى الجبل وسط الأشجار. سبقه الكلب وكان متنبها. أحيانا كانا يتوقفان فيرفع الكلب أنفه تجاه الريح، ثم يخفض رأسه ثانية إلى

أرض الغابة. قاد ديرميد إلى الأمام، ثم انحنى يمينا، ثم يسارا، بعدها توقف ثانية، وحول وجهته، ثم استمر في الجري.

فجأة صارت أصوات الكلاب قريبة جدا مرة أخرى. كذلك كانت هناك أصوات بشر، ربما لثلاثة أو أربعة أشخاص. وقف شعر رقبة ماك آن تشيل ورفض التحرك من مكانه.

"تقدم يا ماك آن تشيل!"

لكن الكلب لم يتحرك.

"إلى الأمام يا ماك آن تشيل!"

وجه الكلب رأسه ناحية ديرميد.

"إلى الأمام!"

جذب ماك آن تشيل شفته العلوية إلى الخلف، وكشر عن أسنانه، ثم استمر في العدو، ولكن ببطء، بينما بقى ديرميد خلفه مباشرة، فقد أثار التردد الغريب للكلب قلقه. ذلك الضباب! ذلك الضباب الحقير!

حين وصلا إلى حافة الغابة، وجدا أمامهما منطقة جرداء ضيقة، يغطيها الضباب بارتفاع يماثل ارتفاع عجلة عربة. كانت أصوات الكلاب تقترب أكثر فأكثر، وكذلك أصوات البشر. كان

ديرميد يفكر: أين العمال؟ استدار ناحية الغابة. أين هم؟ عندها بدأ الكلب يزمجر.

همس ديرميد: "اهدأ، اهدأ!" وفجأة نسي أن يتتبع صوت العمال. فقد ظهر أمامه حيوان أسود، يغطي ظهره شعر خشن، وله أذنان مدببتان، ورأس ممدود به نابان بارزان. اقترب وهو يضرب الأرض بقدميه ويحدث شخيرا، كان خنزيرا بريا، خنزيرا ذكرا في حجم لم يره ديرميد في حياته أبدا حتى تلك اللحظة. "اهدأ يا ماك آن تشيل! – ليس بعد يا ماك آن تشيل!"

انتظـــر الكلـــب. ثـــم خطـــر لديرميد: الآن! "امســـك به يا ماك آن تشيل!"

قفز الكلب. ورآه الخنزير فاندفع نحوه. تفاداه ماك آن تشيل وأمسك به عند المنطقة اللينة أمام الأفخاذ الخلفية. صرخ الخنزير من الألم، واهتز، ثم انقض على الكلب وغرس أنيابه أسفل بطنه. دار ماك آن تشيل في الهواء مثل قطعة قماش بالية.

هنا تدخل ديرميد. أصاب رمحه الخنزير بقوة شديدة أدت إلى كسر عموده. بعدها فقد ديرميد توازنه وانزلق على الأرض المبتلة حتى سقط أمام الحيوان المصاب. رأى الأنياب الصفراء وهي تقترب

منه، فلملم نفسه حتى قام على ركبتيه، وجذب السكين من الحزام. "ماك آن تشيل!" أصاب السكين، والأنياب هدفيهما في ذات الوقت. سقط ديرميد على الأرض. كان ألم شديد يمزق جسده. مع ذلك استجمع قواه ليقاوم الخنزير، لكنه أدرك أن الخنزير كان يرقد ميتا إلى جانبه. سقطت يداه. كان أمام عينيه ضباب كثيف، أحمر. أخذ ديرميد يتأوّه بصوت عال.

عندئذ شعر بشيء دافئ يلامس وجهه. – جرينه! إنها يدا جرينه الدافئة! – أراد أن يسند رأسه عليها، لكن الألم أعاده إلى وعيه: لم تكن يدا جرينه هي التي تلامس وجهه، بل لسان ماك آن تشيل. "العمال يا ماك آن تشيل! احضر العمال إلى هنا!"

هل وصلوا؟ صار ديرميد يرى من جديد الضباب الكثيف. أخذ يصيح: "هنا!، هنا!"

فتح عينيه. "فين؟" فجأة ذاب الضباب. ضغط ديرميد بيديه على جرحه المفتوح. "آه، أنت قمت بالصيد دون أن تسألني؟ أنت إذن من قام بذلك".

"لم أصطد في منطقتك. كنت عند جارك، وهرب منا الخنزير البري عبر الحدود، فأردنا ألا ندعه يفلت منا".

"كان عليك أن تسألني!"

"وهل كنت تسألني دائما يا ديرميد ما هو حقك؟"

كان ديرميد يصارع الآلام، لكنه سأله: "ألم نعقد سلاما فيما بيننا يا فين؟ آه، فين، أنا أعاني عطشا شديدا".

لم يستمع فين لقول ديرميد، بل ضحك وقال: "سلاما؟ سلاما حقق لك أنت ما أردت وخرجت أنا منه بِخُفّي حُنين! لا يا ديرميد، الآن سأثأر لنفسي!

"توقف عن ذلك يا أبي!" كان أويسين هو الذي يتكلم. رآه ديرميد واقفا بجانب فين. "إنه عطشان يا أبي، احضر له ماء!"

"أنا؟ بم أحضر له ماء؟ هل معك شيء أغترف به ماء؟"

"بيديك يا أبي، احضره له! بعد كل معركة كنت تنقذ محاربين كانوا يشربون من يديك. الكل يعرف أنك تمتلك قوة خاصة في يديك".

كان ديرميد يتأوّه وهو يقول: "احضروا لي ماء! سأموت من العطش!"

"احضره له يا أبي، تستطيع أن تنقذه. عار عليك ألّا تفعل!"

"ومن أين لي أن أحضره؟"

"عبرنا من قليل من فوق عين. اذهب يا أبي، اذهب بسرعة قبل أن يفوت الوقت".

كان ديرميد يئن وهو يقول: "ماء! ماء!"

جرى العمال من المكان.

صاح أويسين قائلا: "لن أدع يوما يمضي دون أن أحكي فيه عن وضاعتك يا أبي، إذا لم تذهب لإحضار ماء. أنت تعلم أنه لا بد أن يشرب من يديك".

نزل فين على ركبتيه أمام ديرميد، وقال له: "نعم، سأحضر لك ماء. لقد أنقذت حياتي مرتين. ولهذا سأقوم بذلك".

سند أويسين رأس ديرميد. لم يكن ديرميد يعرف من الذي يفعل بذلك، لكنــه كان يشعــر باليد الممــدودة تحت رأســه، كلما خف الضباب الأحمر.

"جرينه!" مال بوجهه إلى الجانب ليشعر أكثر بدفء الذراع الذي يلفه. "جرينه!"

حين جاء فين أخيرا بالماء، كان ديرميد قد مات.

بقي العمال عند جثمان ديرميد ليحرسوه، بينما توجه أويسين وفين إلى جرينه.

أرسلا أولا خادمة إلى داخل المنزل. كانت جرينه تقف في صالة المعيشة عندما دخلا عليها. مثل حالها في الماضي بتارا كانت ترتدي معطفا أحمر من القطيفة، لكنها لم تكن تلبس حليا. تحدث إليها أويسين وهو يحمل الكلب الجريح بين ذراعيه: "جئنا لكِ بنبأ سيئ."

سألت جرينه فقط: "ديرميد؟"

أجابها أويسين: "مات ديرميد".

أشارت جرينه إلى حيث يجب أن يضع الكلب، ولم تتحرك من مكانها. فقط ظلت تنظر إلى فين.

قال فين: "من حقك أن تنوحي عليه كما هي العادة".

"أحببت ديرميد فوق العادة، ولذلك فسأنوح عليه أكثر من المعتاد. لتصمت في منزلنا يا فين ماك كومهال. لكن عليك أنت يا أويسين أن تحكي لي كل شيء".

وجه أويسين اتهاماته إلى والده أمام جرينه، وكلما تكلم أكثر، شعر فين أكثر بالارتباك تحت نظرات جرينه.

بعدها وقفت أمامه وقالت له: "كنت تعلم أن ديرميد واقع تحت سحر الخنزير البري، وتركته عمدا يهرب إلى منطقة الصيد التابعة لنا. هذا ما جرى، أليس كذلك يا فين؟"

أجابها فين ببرود: "نعم، هذا ما جرى".

"لقد أرسى الملك المعظم سلاما بيننا علمت به إرين كلها، وأنت لم تجرؤ على خرقه. لكنك الآن عدت لتثأر لنفسك، وقمت بهدم سعادتنا. اغرب عن وجهي يا عديم الإنسانية! اتركني أنت أيضا وحدي يا أويسين، فأنا أريد الذهاب إلى ديرميد".

رأى أويسين التوأم الذي يشبه ديرميد كثيرا واقفا أمام الباب.

سأله الصبى الصغير: "هل أبي بالمنزل؟"

أجاب أويسين: "لا"

صاحت الفتاة: "لكن ماك آن تشيل قد عاد!" بدا في يد دخل الاثنان إلى المنزل.

تابعهما أويسين بعينيه، وأحس في تلك اللحظة بكره شديد لأبيه لم يشعر به أبدا من قبل.

أمرت جرينه بتجهيز عربة تجرها أربعة أحصنة. ثم وضعت السرج على ‘جمال البجع’ وقادته أمام العربة. مرّ الطريق الذي سلكته بمزارع الفلاحين. كان الناس يقفون هناك ولا ينظرون إليها. غلبها الحزن بشكل كبير لدرجة أنها ظلت تنحني شيئا فشيئا إلى الأمام حتى التقى رأسها بعنق ‘جمال البجع’.

أضفى المساء على جبل بنبولبن لونا ذهبيا. أمرت جرينه العمال بأن يتبعوها لاحقا، فقد أرادت أن تختلي من جديد بديرميد. مرت عبـــر الغابة إلى المنطقة الجرداء، فلم تجد ديرميد، ولم تجد أيضا العامليـــن الاثنين الموكل إليهما حـــراسة جثمانه. لكنهـــا رأت عربة واقفة، عـــربة رائعة، براقـــة، يقف إلى جانبها شخص ضخم يلفه معطف داكن.

صاحت جرينه: "آنجوس! أنت هنا؟"

"جئت يا جرينه لآخذ ديرميد إلى ‘بروف نا بوينه’ حيث أعيش. هناك، في مملكتي سأعيد له حياته مرة أخرى. فأنت تعلمين أنني أحبه مثل ابن لي".

"إذن خذني أيضا معك. فأنا لا أستطيع أن أحيا بدونه".

"حتى تأتي ساعتك عليك أن تعيشي بدونه. عندها سيحضرك 'جمال البجع' مع فنجوالا إلى 'بروف نا بوينه'، وسترين ديرميد مرة أخرى".

"دعك الآن من تلك الساعة يا آنجوس، وخذني معك!"

"ليس بعد يا جرينه. ففي منزلك ينتظر أربعة أطفال يحتاجون إليك. عليك أن تحكي لهم في كل يوم عن ديرميد".

رجعت جرينه خطوة إلى الخلف. "نعم، عن ديرميد وعن ميتته المخزية، وسوف أعلم أبنائي بنفسي كيف يستخدمون السيوف والرماح، ليثأروا لأبيهم من فين".

أخذ آنجوس جرينه تحت معطفه وقال: "لا يا جرينه، لم أقصد ذلك. لقد اخترتِ الحب في حياتك، وهكذا يجب أن يستمر الأمر. حين يكبر أولادك سيكون فين قد مات".

سألتــه جرينه: "ألــن تكــون هنـــاك أبـــدا ملحمة تحكي عن الثأر من فين؟"

"آه، جرينه، هناك ما يكفي من ملاحم في عالم الإنسان تحكي عن الثأر، لكن لا توجد ملحمة واحدة تمتدح الحب. ستكون الملحمة التي تحكى عن حبك لديرميد هى الأولى."

استندت جرينه على آنجوس من ‘بروف نا بوينه’ ورجته قائلة: "دعني أراه مرة أخرى".

ذهب معها إلى العربة. لم يكن ديرميد ميتا، فقد رأت ذلك بدقة. بدا وهو مستلق مثلما رأته من قبل مائة مرة وهو نائم بجانبها. نادته بصوت خافت كأنها تريد أن توقظه: "ديرميد! ديرميد!"

مسح آنجوس بيده على شعرها. تحركت العربة اللامعة من أمامها دون أن تحدث صوتا. كان يجرها حصانان أبيضان، بينما مشى آنجوس من ‘بروف نا بوينه’ بجانبها.

مضى على تلك القصة ألفا عام. أصبحت إرين دولة أيرلندا، وأصبحت مملكة "مايد" المنطقة المسماة ‘ميث’، وأصبحت تارا هضبة بها بقايا أسوار ضخمة، يستطيع الناظر إليها أن يحددَ بها مكان قلعة الملك. لكن ما لم يتغير هو قصة حب جرينه لديرميد. فقد بقيت حيةً دون أن يطرأ عليها تغيير، وكأن أحداثها قد وقعت منذ فترة وجيزة.

المؤلفة في سطور:

باربارا بارتوس-هوبنر

اشتهرت بكتابة قصص الأطفال، بالإضافة إلى الروايات التاريخية. وقد حصلت في هذين المجالين على عدة جوائز، كما ترجم الكثيرُ من أعمالها إلى العديد من اللغات.

المترجمة في سطور:

د: مؤمنة حافظ عبد البر

مدرس بقسم اللغة الألمانية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ومترجمة حرة.

حصلت على العديد من المنح الدراسية والبحثية والثقافية بالخارج حتى حصولها على درجة الدكتوراه في الأدب الألمانى الحديث والمعاصر في علم ٢٠٠٧، وهي تعمل منذ ذلك الحين في مجال تدريس الأدب والحضارة بقسم اللغة الألمانية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة، وأيضا في مجال تدريس اللغة الألمانية بباقى أقسام كلية الآداب، جامعة القاهرة.

كما تقوم بالتدريس في بعض الجامعات الخاصة مثل الجامعة الألمانية وجامعة السادس من أكتوبر.

تعمل د.مؤمنة حافظ عبد البر في مجال الترجمة منذ عام ١٩٩٥، حيث تقوم بالترجمة من الألمانية وإليها في العديد من المجالات، مثل الأدب والحضارة والدين الإسلامي.

التصحيح اللغوى: إيهاب المــــلاح
الإشراف الفنى: حســن كامـــل

لم يسمح لابنة الملك، جرينه، بالزواج من الرجل الذى تحب، لأن والدها يريد تزويجها برجل آخر اختاره هو لها. لم يبق أمام جرينه سوى الهروب مع ديرميد بعد رفضها تنفيذ رغبة والديها، ويصبح مطلوبا منها أن تتحلى بالشجاعة والثبات. يظل ديرميد وجرينه مطاردين على مدار سنوات طوال من قبل الزوج المرفوض الذى لا يستطيع التغلب على كراهيته لهما حتى بعد أن تمت مصالحة بينه وبينهما تعهد فيها بالالتزام بالسلام تجاههما.

إنها قصة خيالية من التراث الأدبى لأيرلندا القديمة، تتخللها بعض ملامح الأسطورة، وتميزها لغة سلسة ورصينة فى الوقت نفسه.

تصميم الغلاف: أحمد بلال